موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ الْمَسِيحِيَّةِ

www.coptology.com

أركان العبادة المسيحية

أو

كيف تنقلنا الليتورجية إلى الحياة الجديدة في المسيح؟

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠١٢

اسم الكتاب : أركان العبادة المسيحية
الناشر : د. جورج حبيب بباوي
المؤلف : د. جورج حبيب بباوي
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٣٣٩١
المطبعة : جي سي سنتر
١٤ ش محمود حافظ ميدان سفير ٢٦٣٣٨١٣٧

جدول المحتويات

تمهيد ٥

أولاً: إعادة اكتشاف الآباء ٥

ثانياً: إعادة تدوين تاريخ العقيدة المسيحية ٦

ثالثاً: صلة العبادة المسيحية بالمجمع اليهودي، وتطورها في مواجهة البدع ٨

الفصل الأول: شخص المسيح الفريد والفذ ١٥

الرموز الليتورجية للجسد ٢٤

الفصل الثاني: العلاقة الجديدة بين الثالوث والإنسانية في المسيح وبالروح القدس ٣٣

- دعائم النعمة. ٣٨

- المسيح حياتنا وعالم الرموز والقياس. ٤١

- المشكلة الأولى. ٤٢

- المشكلة الثانية. ٤٤

- الليتورجية وحضور الله. ٤٥

الفصل الثالث: التحول في كيان الإنسان، أو الخلق الجديد ٤٩

الإفخارستيا جسد المسيح تكوِّن الكنيسة ٥١

التحول من الوجود الطبيعي إلى الوجود المسيحي ٥٢

مرتكزات التحول من الوجود الطبيعي إلى الوجود المسيحي ٥٦
أولاً: آدم الجديد ٥٦
ثانياً:الميلاد الجديد بالروح ٥٧
ثالثاً: الابن الوحيد الجنس ٦٦
وظائف ناسوت المسيح حسب التدبير ٦٩

الفصل الرابع: الجماعة المسيحية، أو الكنيسة باعتبارها جسد المسيح ٧٧
الكنيسة تصبح جسد المسيح في الإفخارستيا ٧٨
أشكال الاتحاد في اللاهوت المسيحي ٨٦

تمهيد

بادئ ذي بدء، لا أريد أن أعرض لتاريخ الدراسات الليتورجية التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، والتي انطلقت أساساً مع حركة استرداد تراث الآباء في فرنسا، ومنها إلى جهات أخرى في أوروبا الغربية.

كان ميلاد حركة التجديد *Renewal* في أوروبا مصدره ثلاثة اتجاهات وُلدت معاً وتزامنت بشكل واضح:

الأول: إعادة اكتشاف الآباء.

الثاني: إعادة تدوين تاريخ العقيدة المسيحية.

الثالث: اكتشاف صلة العبادة المسيحية بالمجمع اليهودي في القرون الأولى، وتطور العبادة لمواجهة البدع مثل الغنوصية، ثم تطور العبادة بعد ذلك لمواجهة الأريوسية والنسطورية.

وسوف نتناول هذه الاتجاهات الثلاثة بشيء من التفصيل.

أولاً: إعادة اكتشاف الآباء

لعب الآباء دوراً هاماً في حركة الإصلاح الديني في أوروبا، فقد استطاع مارتن لوثر – بالعودة إلى لاهوت القديس أوغسطينوس مطعَّماً بما استوعبه لوثر من لاهوت القديس بولس – أن ينقَض على لاهوت العصر الوسيط، وأن يقوِّض النظام العقيدي لكنيسة العصر الوسيط. وهكذا كان من الضروري للجانب الكاثوليكي إعادة اكتشاف القديس أوغسطينوس والانكباب على دراسة رسائل بولس الرسول، وقد استغرق هذا قرابة ثلاثة قرون تتبادل فيها جامعات أوروبا البروتستانتية الأبحاث والاتهامات.

وقام يوحنا كالفن باستخدام يوحنا ذهبي الفم للهجوم على الكنيسة الكاثوليكية، وهو الهجوم الذي وُلِد منه المذهب المشيخي الإنجيلي، وكان من الضروري إعادة اكتشاف القديس يوحنا ذهبي الفم واستيعاب ما جاء في كتابات هذا الأب.

وهكذا دخلت دراسات الآباء المجالات المذهبية، واحتدم الجدل حول ما جاء في كتابات الآباء، وقرأ كل جانب إيمان كنيسته في كتب الآباء، حتى جاء القرن التاسع عشر بهدنة شبه مسلحة بين كل الأطراف، حاول فيها كل جانب إعادة تقييم ما جاء في دراسات القرون السابقة، ولم يستقر الأمر إلاَّ في القرن العشرين، وهو الفترة الحالية التي شهدت:

أولاً: تحديداً دقيقاً لكل المصطلحات اللاهوتية عند الآباء.

ثانياً: تحديد مسار التطور التاريخي للفكر المسيحي.

ثالثاً: التنازل عن التفسير المذهبي للتاريخ الكنسي من أجل فهم صحيح للتاريخ دون إسقاط وجهة النظر المذهبية على ما جاء في كتب التاريخ.

وقد فتح مجال البحث باب الحرية لإعادة اكتشاف ما جاء في كتابات الآباء في الصلاة والصوم والأسرار، والطقوس الكنسية واكتشاف الفروق الكبرى والتشابه الذي نراه في التاريخ والعبادة المسيحية في الغرب.

ثانياً: إعادة تدوين تاريخ العقيدة المسيحية

كان تطور الدراسات التاريخية في آخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر هو محصلة الصراع العقيدي بين الجانب الكاثوليكي والجانب البروتستانتي، وخاضت جامعات أوروبا حرباً شعواء حول حقيقة انتماء حركة الإصلاح البروتستانتية وامتدادها لكنيسة الرسل. وهذا هو ما نراه في كتابات الجانبين، ولكن هذه المشكلة، أي رسولية كنائس حركة الإصلاح، هي التي أدت إلى ظهور علم تاريخ العقيدة المسيحية *History of Doctrines*، لأن كل طرف يدَّعي الانتماء إلى كنيسة الرسل، وكل طرف لديه نظرة

خاصة بالتقليد *Tradition* الكنسي. وكانت كنائس الإصلاح ترى أن ما جاء في الكتاب المقدس وحده هو الأساس، وأن ما أضافته العصور التالية للعصر الرسولي هو ما يجب إعادة النظر فيه، ولكن على أي أساس؟ ومَن هو الحكم والقاضي في الأمور التي جاءت بعد العصر الرسولي، مثل قرارات المجامع المسكونية، ونظام العبادة، ولاهوت الأسرار؟ ما هو مقياس الصواب والخطأ إذا وجدنا عادات وصلوات لا تظهر في العهد الجديد نفسه، ونراها في وثائق التاريخ الكنسي في القرون التالية مثل الرابع والخامس وما بعدهما؟

لذا كان من الضروري البحث عن تاريخ العقيدة، وهو بحثٌ جاء مواكباً ومتزامناً لحركة نقد قوية بدأت في مراكز الدراسات اللغوية والاجتماعية في فرنسا بشكل خاص، فقد جاء هجوم النقاد في القرن الثامن عشر بعدة أسئلة لم تكن مطروحة من قبل: هل كان المسيح شخصية حقيقية، أم أنه أحد خرافات العصور القديمة؟ وما هو حكم التاريخ على وجود هذا الشخص وصلبه وقيامته؟ .. إلخ.

وكان من الضروري أن يبدأ كل أستاذ للتاريخ الكنسي – حتى عهد قريب – بتأكيد حقيقة وتاريخية شخصية المسيح من خلال الوثائق غير المسيحية للمؤرخين من الرومان الذين عاصروا ميلاد المسيحية، وسجَّلوا لنا واقعة الصَّلب على عهد بيلاطس البنطي، وغيرها من المسائل التي وردت عند *Pliny* وتاسيتوس وغيره. وهكذا دخل أسلوب البحث العلمي هذه الحلبة، وبسبب صدام الكنيسة مع النقاد، ساهم ذلك في إرساء المبادئ العامة للبحث غير المذهبي. وكانت نتيجة ذلك إعادة اكتشاف تاريخ العقيدة المسيحية، وضرورة البحث بأسلوب غير مذهبي عن تطور العقيدة. وجاءت أغلب الدراسات في القرنين التاسع عشر والعشرين ضد اعتقادات حركة الإصلاح، وبشكل خاص في مجال العبادة .. ولازال الحوار العلمي دائراً حول الإفخارستيا والكهنوت.

ثالثاً: صلة العبادة المسيحية بالمجمع اليهودي، وتطورها في مواجهة البدع

إن إعادة اكتشاف صلة العبادة بالمجمع اليهودي، أي بالتراث الروحي اليهودي، أمرٌ له تاريخ طريف؛ فقد جاءت حركة النقد التاريخي بسؤال: ما هو مصدر العبادة المسيحية، ومن أين جاء هذا الكم الهائل من صلوات وتراتيل؟ وكانت أول إجابة فاشلة هي أن الكنيسة تحوَّلت بفضل جهود الرسول بولس إلى حركة للأمم، وأن هؤلاء جلبوا معهم صلوات وعادات، بل واعتقادات وثنية، وأنه من خلال هذه وُلِدت العبادة المسيحية وعقائد الكنيسة كلها.

كانت هذه النظرة وليدة حركة النهضة الأوربية، وهي حركة معقدة لها تاريخ معقد، ولكن نكتفي بالقول بأن رفض ما هو إلهي، ورد كل شيء في مجالات الديانات إلى العقل والشعور الإنساني والمجتمع والتقاليد، هو الإجابة العامة التي لم تقابَل بالتحدي العلمي والتاريخي إلاَّ في نهاية القرن الثامن عشر. وطوال القرنين السابع عشر والثامن عشر انقسمت الدراسات إلى جانب يهاجم كل ما في المسيحية ويرده إلى الوثنية، وجانب آخر يحاول الرد من خلال دراسات تاريخية تؤكد أن العبادة المسيحية وُلِدت في أحضان الديانة اليهودية، وأن جذورها عبرانية، وأن ما نراه من ساق وفروع، إنما هو عائدٌ بشكل أساسي إلى اليهودية. وفتح هذا مجال البحث في كل شيء من لغات ومفردات، وعادات، وصلوات، ورموز، وبدأت الدراسات الليتورجية على هذا النحو وسط هذا الكم الهائل من المعلومات والدراسات، وكان من الضروري ضبط قواعد البحث وتحديد مجالاته.

وجاء القرن التاسع عشر

أولاً: بتدوين كل النصوص الليتورجية الخاصة بالكنائس المسيحية قاطبةً، ونشرها باللغات الأصلية، وتحقيق هذه النصوص واثبات تاريخها وضبطها على ما هو متوفر من مخطوطات أو مطبوعات.

ثانياً: استفادت الدراسات الليتورجية من دراسات التاريخ الكنسي، ومن نشر كتابات الآباء، وأمكن حصر الكثير من العادات والقوانين الخاصة بالعبادة المسيحية شرقاً وغرباً بما وصلنا من معلومات تاريخية وردت في كتابات الآباء.

ثالثاً: جاء علم الآثار والحفريات ليؤكد لنا الكثير الذي كان من القضايا المعلقة مثل شكل الكنائس، وهندسة المباني، ونظام تجمعات الهيئات والجماعات المسيحية. وجاءت القبور بالكثير من كؤوس وصلبان وكتب، وصلوات ونقوش ... وتوافر لدينا كم هائل من المعلومات، استمر تصنيفه قرابة قرن ونصف.

هذه هي نقطة البداية، وهي كما ذكرت، استمرت أكثر من ثلاثة قرون.

ولكن ما الذي يجري الآن في الدراسات الليتورجية؟ وما هي أهميتها بالنسبة لنا في مصر؟

بالنسبة **للسؤال الأول**، سوف أتوقف عند أهم ما يحدث الآن في الدراسات الليتورجية، تاركاً التفاصيل الدقيقة لمناسبة أخرى.

فقد تجاوزت الدراسات الليتورجية الصراعات المذهبية بين الكنائس منذ أكثر من نصف قرن. وعلى سبيل المثال، إذا قلنا إن المعمودية هي الولادة الثانية، فهذه حقيقة عقائدية تمتد من العصر الرسولي، وتدخل في كل الصلوات القديمة، وتظهر في كتابات الآباء بشكل طبيعي. وهناك مثالٌ آخر على أهمية تجاوز النظرة المذهبية، وهو اعتبار الإفخارستيا ذبيحة. ولكن ما هي هذه الذبيحة؟ ولمن تقدَّم؟ وهل هي تقدم للآب، أم هي تقدمة المسيح، أم تقدمة الكنيسة؟ لا زال ذلك كله محل جدل. أمَّا أنها ذبيحة، فهو موضوع استقر وانتهى، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل أخرى لا تفيد إلاَّ الباحثين.

أمَّا بالنسبة **للسؤال الثاني** وهو المتعلق بأهمية الليتورجيات في الدراسات اللاهوتية، وفي مصر بشكل خاص، فإنني أريد أن أخصص الحديث على هذه القضايا الأربعة الرئيسية:

أولاً: لا يمكن فهم العقيدة المسيحية بدون الممارسة، والممارسة هي صلوات وأسرار الكنيسة.

ثانياً: لا يمكن إدراك الفروق الأساسية بين المسيحية وغيرها من الديانات مثل اليهودية أو البوذية أو الإسلام، إلاَّ بالعودة إلى العبادة، ونظام العبادة وغاية العبادة.

ثالثاً: لا نستطيع أن ننادي بأيةِ نهضة روحية أو فكرية لا تمس العبادة ولا تنبع من داخل العبادة، أي من الليتورجية.

رابعاً: بات من الواضح اليوم أكثر من أي وقت آخر أن التضارب الذي حدث في الدراسات الخاصة بالعهد الجديد نفسه نتيجة تحليل نصوص الكتاب المقدس بأسلوب نظري عقلي، أدَّى إلى عدم تناول نتائج هذا التحليل بالبحث، وكذلك عدم تناول أثر الدراسة النظرية على صلة الإنسان بالله في المسيح يسوع. فقد اكتشف النقاد أن أهم خطأ وقعوا فيه هو إغفال أهم عنصر يميِّز الديانة المسيحية، وهو **أن كل ما في هذه الديانة بُني على شخص المسيح ويدور حوله. وأن المسيحية في حقيقة الأمر هي شخص يسوع نفسه.** وبالتالي ما هي حقيقة العلاقة بين الشخص والنص؟ والروح والحرف؟ وهل كانت المسيحية دعوة موازية للديانة اليهودية، وهل هي هرطقة خاصة نشأت في داخل اليهودية، أم هي دعوة جديدة جداً؟ فاليهودية تقوم على دراسة نص الكتاب وشروح علماء الشريعة، **والوسيط بين الله واليهود هو التوراة أو شريعة موسى ... بينما يتغيّر هذا الوسيط في العهد الجديد؛ ليصبح يسوع المسيح**، وبحلول الشخص محل الشريعة والنص، اختلفت أهداف الديانة، **وأصبح من الضروري أن تحكم حياة الشخص تفسير النص**، وليس العكس، وهو الآن ما يملي على أساتذة نقد الكتاب المقدس تغيير مواقفهم السابقة والعودة إلى الخط الرسولي القديم، **وهو أن المسيح يشرح الكتاب المقدس، بينما يعجز الكتاب المقدس عن**

شرح المسيح؛ لأن شرح المسيح للكتاب المقدس مبني على حياة يسوع نفسه، وعلى إيمان الجماعة وعلى الممارسة، وعلى العلاقة الجديدة التي جاء بها الابن وقدَّمها كعطية من عند الآب للإنسانية.

وهكذا برز من جديد موضوع الثالوث، وهو موضوع أهمله الغرب طوال فترة القرون السابع عشر حتى منتصف القرن العشرين .. وعودة عقيدة الثالوث تؤكد لنا أن الدراسات النقدية التي أهملت دعوة يسوع المسيح لعلاقة جديدة بين الإنسان والله، أدركت أنها وقعت في فخ حاولت اليهودية أن تبتعد عنه[1]، وهو يقوم على خداع سهل للأسباب الآتية:

أولاً: يقرأ فيه الإنسان أفكاره في النص ويفرضها عليه.

ثانياً: يفرض فيه الإنسان مشاكله وأسئلته على النص، ويحاول أن يجد في النص إجابة على سؤال لم يكن مطروحاً.

ثالثاً: فرضُ الفكر المعاصر بكل قضاياه ومشاكله على تراث قديم كانت له نظرة خاصة للإنسان والله والكون والحياة، أي أننا لا نسمح للنص بأن يخاطب ما عندنا، بل نخاطب نحن النص آملين في جوابٍ، هو في أغلب الأحوال جوابٌ لا علاقة له بالنص نفسه.

فقد حاول علماء اليهودية قبل وبعد ظهور المسيحية اعتبار الشريعة أو التوراة هي القاضي الأول والأخير في كل ما جاء في العهد القديم، أي القانون الذي يفسر العهد القديم كله. ولكن حدثت أخطاء هائلة كان أولها رفض الإنجيل نفسه، ومطاردة بولس، واعتبار أن المسيحية دعوة تهدم الديانة اليهودية. بل تحول لاهوت اليهودية الخاص بالمسيح في القرن الأول والثاني إلى اتجاه معادي تماماً لكل ما كانت تقبله اليهودية عن إلوهية المسيح كابن لله[2]

---

(١) المقصود بالفخ هنا هو تحول العلاقات (العلاقة) الإلهية الإنسانية إلى علاقة أحادية يقوم فيها الإنسان بطقوسٍ تكشف له حقيقة كيانه، ولا تُعلِن له الله، وهو ما حاولت اليهودية الابتعاد عنه بنداءات الأنبياء المتكررة.

(٢) وهو ما تعبر عنه شخصية الماسيا الإلهية كما وردت في سفر دانيال (٧: ١٣ – ١٤)، وكما عبر عنها مزمور ٤٥ «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور»، وشخصية عمانوئيل في أشعياء (٩: ٦ – ٧، ٧: ١٤).

.. ولعل هذا هو أحد أسباب ولادة الحركة الروحية المعروفة باسم اليهودية المسيانية، فقد عاد هؤلاء إلى المسيحية حسب الدراسات التي نُشرت بسبب اكتشاف ما أهملته اليهودية من تفاسير الأنبياء في العصور السابقة على مولد الديانة المسيحية.

أعود إلى النقطة الأولى، فهي في حقيقة الأمر ذات صلة وثيقة بالنقطة الرابعة، فنحن لا نستطيع فهم العقيدة المسيحية بدون الممارسة، أي بدون صلوات وأسرار الكنيسة، وبشكلٍ خاص، المعمودية والإفخارستيا.

لماذا يتعذَّر علينا أن نفهم أي عقيدة من عقائد المسيحية بشكل سليم بدون العودة إلى الصلوات والأسرار الكنسية؟

والجواب هو أن طبيعة الديانة المسيحية نفسها، فرضت على كل باحث أن لا يبدأ بفكر المسيح مع أن هذا موجود، أو بتعاليم المسيح مع أن هذا متوفر، بل بشخص المسيح. وهنا تؤكد الدراسات الليتورجية أن اسم الديانة نفسها «المسيحية» و«المسيحي» مأخوذٌ من الأصل العبراني القديم، ودخل اللغة اليونانية. وفي الطقوس الكنسية والليتورجيات لدينا الاسم الليتورجي القديم Χριστοι المسحاء، والممسوحين[٣]، وهو الاسم الذي أُخذ من خدمة المعمودية والميرون، وبالتالي فالاسم يَرُد الديانة إلى "هبة وعطية الله"، وهي الهبة والعطية التي جاء بها المسيح.

وأقدم الممارسات الكنسية هو سر عشاء الرب أو الإفخارستيا، وهو عشاءٌ خاص، تقدِّم كل الصلوات والطقوس عبر تاريخ المسيحية كله وجود المسيح في هذا العشاء، حيث يوزِّع جسده ودمه، فهو – أي الإفخارستيا – مثل اسم الديانة، يؤكد هبة وعطية الطعام السمائي، الـــمَّن النازل من فوق، والخبز الواهب الحياة للعالم.

(٣) «ها إنكم اعتمدتم في المسيح ولبستم المسيح، فأصبحتم على مثال صورة المسيح ابن الله. لأن الذي اختارنا لأن نكون أبناء بالتبني، جعلنا على صورة جسد المسيح المجيد. وبما أنكم أصبحتم شركاء المسيح، فأنتم مدعوون بحق مسحاء، وعنكم قال الله: لا تمسوا مسحائي. إنكم أصبحتم مسحاء بتلقيكم ختم الروح القدس». راجع تعريب الأب جورج نصور لعظات القديس كيرلس الأورشليمي، طبعة الكسليك، لبنان ١٩٨٢، ص ٣٩٣.

وقد بحث علماء الليتورجيات طويلاً في العلاقة بين الفصح اليهودي والعشاء الرباني، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء. وبالرغم من أن الخبز والخمر والشكر والصلوات هي الإطار العام الذي يجمع بين الإفخارستيا وصلوات وطقوس اليهودية، إلاَّ أن الاختلافات كبيرة جداً لدرجة أن الإفخارستيا تتعدى وتخرج على الإطار اليهودي كله .. فالديانة اليهودية لا تسمح بأن يقدِّم إنسانٌ جسده ودمه، ولو بشكل رمزي، هذا غير مقبول بالمرة، بل ممنوع في سفر اللاويين والتثنية. وبالتالي تفرض علينا الإفخارستيا أن نبقى في إطار بشارة الإنجيل بالحياة الجديدة، وهنا تقدِّم الدراسات الليتورجية ما يلي:

أولاً: شخص المسيح الفريد والفذ الذي لا مثيل له.

ثانياً: العلاقات الجديدة من خلال حياة وموت وقيامة شخص المسيح.

ثالثاً: التحول في كيان الإنسان، أو الخلق الجديد.

رابعاً: الجماعة المسيحية، أو الكنيسة باعتبارها جسد المسيح، وهو اسمٌ جديرٌ بالاهتمام؛ لأنه ينزع عن الكنيسة أي صفة اجتماعية.

تلك هي أركان العبادة المسيحية، وهي كما نراها تؤكد لنا أن العقيدة أو الإيمان المسيحي هو ممارسة وليس فكراً عقلانياً فلسفياً. وسوف نتناول كل ركن منها في فصل مستقل بشيء من التفصيل.

الفصل الأول

شخص المسيح الفريد والفذ

المسيح يسوع هو ابن الله، وهذا يعني أن الكلام عن التبني لا يمكن فهمه إلاَّ من خلال هذه الدعوة الجديدة التي تقول لنا إن يسوع هو ابن الله الذي جاء وفتح لنا باب الشركة في بنوته، أو حسب تعبير آخر عند الرسول بولس هو أننا «ورثة لله بالمسيح» (غلا ٤: ٧). وبنوة الابن تتوسط كل شيء في الليتورجية، فهي تشرح لنا الوساطة وعمل الخلاص، بل صاغت لنا هذه البنوة الصلوات المسيحية التي تبدأ بكلمة: ''أبانا''. وبنوة المسيح للآب جعلت اسم ''يهوه'' العبراني يختفي من الصلوات المسيحية، ويحل محله اسم الله الآب، وهي – أي البنوة – جعلت الأمم يترجمون اسم يهوه «الكائن الذي كان والذي سيأتي» إلى ''الآب''، فهو الكائن كآب أزلي، وهو الذي يأتي في ابنه يسوع المسيح.

هكذا ترسم الممارسة، خطوط تحول الكلمات العبرانية والأسماء الإلهية بسبب عطية التبني في يسوع المسيح. وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا يقول الرسول بولس إن الإنجيل «هو قوة الله للخلاص» (رو١: ١٦)، فهو بشارة قوة الحياة. وإذا كانت القيامة هي أهم أعياد المسيحية، وهي العيد الأسبوعي في طقوس الكنيسة في العصر الرسولي وفي القرن الأول، فقد ظل أيضاً هو الاحتفال الأسبوعي الذي بسببه تقام الإفخارستيا في يوم قيامة الرب أو يوم الأحد. فنحن نجتمع مع يسوع الحي القائم من بين الأموات لكي يعطي لنا جسده ودمه. وهذا اليوم هو ذاته يوم العنصرة الذي حلَّ فيه الروح القدس.

وحسب الطقس البيزنطي والقبطي، فقد حل الروح القدس في الساعة الثالثة[٤] عندما كان التلاميذ يقيمون القداس الإلهي، وقد ترك هذا علامةً

(٤) المقصود الساعة الثالثة من بدء النهار، أي الساعة التاسعة صباحاً بالتوقيت الحديث.

واضحةً على ترتيب صلوات القداس في الطقس البيزنطي الذي يُبرز دور الروح القدس بشكل ظاهر في صلوات الليتورجية.

وهكذا كانت الخبرة المسيحية للتبني، والقيامة، وميراث الحياة الأبدية، وعطية الروح القدس، والشركة في جسد الرب ودمه، وقبل كل هذا المعمودية المقدسة، هي التي صاغت عقيدة الثالوث، الآب والابن والروح القدس، الجوهر الواحد والمثلث الأقانيم.

وأنا هنا لا أريد أن أعرض لهذا الجانب الدفاعي الذي قدَّمه الآباء، فهذا معروف لكل الذين درسوا الأريوسية. ولكن إذا استبعدنا البراهين الدفاعية، علينا أن نسأل: كيف صاغت العبادة عقيدة الثالوث؟ وكيف ساهمت الممارسة المسيحية في فهم وتشكيل نظرة المسيحيين إلى طبيعة الله؟

الجواب يأتي من رسالة الإنجيل، وهي اقتراب الله وتنازله لكي يشترك في الحياة الإنسانية ويتجسد. لقد فرضَ علينا التجسد أن نميِّز بين أقانيم الثالوث؛ لأن المتجسد هو الابن، وهو رسول الآب، الذي جاء لكي يعلِن الآب، ويصلي له، ويُظهر محبته العظمى، واهتمامه بالبشر.

لقد صاغت حياة يسوع كل ما نعرفه عن الثالوث. وجاءت هذه الصياغة من خلال الممارسة التي تبدأ بعطية التبني في المعمودية، والصلوات وفي الاجتماع الإفخارستي الأسبوعي. ولكن ماذا نرى في الوثائق القديمة، وفي التعليم الرسولي نفسه؟ إذا كان الوسيط بين الله والناس هو ابن الله، فهذه الوساطة لم تنشأ بقرار من الشريعة ولا بحكم الناموس، وإنما هي إعلانٌ عن محبة الله. هذه ليست فكرة أو مبدأ، وإنما هي الحقيقة التي تشرح لنا الممارسة المسيحية نفسها.

فالمسيحي يصلي حياة يسوع المسيح عندما يُصلب ويُدفن ويقوم معه، ليس في المعمودية فقط، بل في الحياة اليومية، وبشكل خاص في مسألتين كل منهما على قدر كبير من الأهمية:

- المحبة الأخوية الغافرة،
- والمحبة التي تكوِّن الشركة.

نحن نحب ونغفر كما أحبنا المسيح وغفر لنا. هذا هو قلب وجوهر عقيدة إلوهية المسيح. غفر الله لنا مجاناً في المسيح، وبذلك أعلن محبته، ونحن بالممارسة نغفر، وبالمسيح نمارس، ليس المحبة العارية المجردة، بل المحبة المتجسدة المصلوبة الحية التي تهزم الموت.

لقد جاءت محبة الله التي أعلنها المسيح بتحولٍ في سلوك الإنسان تجاه الآخرين، وتجاه الله. فقد جاء المسيح وطلب منّا أن نتشبَّه بالله، وأن نسلك نفس سلوك الآب الذي يُشرق شمسه على الأبرار والأشرار، ويُمطر على الصالحين والخطاة. وهذا هو السلوك الإلهي الذي رأيناه في حياة يسوع في طلب المغفرة للصالبين، وفي عدم تغيُّر محبته للتلاميذ، وفي تأكيد يسوع على أن الآب لا يختلف عنه مطلقاً، بل له نفس المحبة، وأنه لكي يؤكد لنا هذه المحبة، فإنه سوف يُرسل معزياً آخر، روح الحق، الروح القدس؛ لكي يؤكد لنا أن اللاهوت سوف يحل فينا.

لقد جاءت الليتورجية بإيقاع روحي وفني يشرح عقيدة الثالوث دون جدل يظهر فيما يلي:

فكما أن الآب يرسل الابن ليقوم الابن بكل ما يريده الآب، هكذا يقوم القس بأعمال الأسقف، ويقوم الأسقف بدور الآب حسبما نرى في رسائل أغناطيوس. وكما أن أياً من الأقانيم يمكنه أن يقوم بعمل الأقنومين الآخرين، هكذا يتولى القس قيادة الشعب في الكنيسة، ويصلي باسم الجماعة كلها.

حول هذه الممارسة نرى عقيدة المساواة بين الأشخاص، والوحدة في الجوهر. ونرى أيضاً أن التمايز والاختلاف بين أقنوم وأقنوم لا ينشأ بسبب الطبيعة أو الجوهر، بل بسبب الصفة الخاصة بالأقنوم، وهي صفة لا تقسِّم الجوهر، بل تحفظ وحدته. وهنا يجب أن نرى في الممارسة الرسولية القديمة

التي أشار إليها الرسول بولس بكلمتين:
- الجماعة، أو الكثيرين.

أقول يجب أن نرى في هذه الممارسة: الواحد، وهنا هو المسيح الذي يجمع الكل بسبب الشركة في الخبز الواحد حسب قول الرسول: «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١كور١٠: ١٧).

هذه الشركة في الجسد الواحد، والتي تجعل الكل جسداً واحداً، مرجعها - كما يقول أفرام السرياني وغيره من الآباء - إلى إن جسد المسيح أو ناسوت الرب صار هو المرآة التي نرى فيها حقيقة شركتنا، ونرى فيها الآب والابن والروح القدس.

ووحدة جسد المسيح تعود إلى حقيقة واضحة، وهي أن المسيح لا ينقسم، بل هو عنصر الوحدة الذي يوحِّد ويجمع الفرقاء «أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يوحنا١١: ٥٢). والواحد هنا هو الجسد الواحد، وهو أيضاً جوهر اللاهوت الواحد للثالوث.

وما يجب أن نلاحظه هنا، هو أن ما هو إلهي وخاص بالله، إنما يُعطى للإنسانية من خلال المسيح، لكي يحول المسيحُ الانقسام والتباعد إلى تمايُز واختلاف يقود الوحدة، فثالوث اللاهوت يشرق على الجماعة من خلال ناسوت الابن لكي يخلق ليس فقط المبدأ الروحي، بل التطبيق والممارسة، وهو الوحدة والتمايُز على أساس انتماء عدة أعضاء لجسدٍ واحد، وكل عضو له موهبة، لذلك لم يكن عبثاً أن وضع الرسول بولس أساس الوحدة في المسيح في الإصحاحات ١٠، ١١ من كورنثوس الأولى على أساس الممارسة والخبرة الليتورجية، لكي ينطلق بعد ذلك مؤكِّداً العلاقة الكيانية بين الروح القدس وجسد المسيح، وهو في ١ كور ١٢، الرب نفسه، والكنيسة. وبعد أن شرح الرسول تعدد المواهب، وضع المبدأ الثالوثي:

- المواهب المتعددة تُظهر الروح الواحد:

«لكل واحد يعطي إظهار الروح للمنفعة» (١كور ١٢: ٧).

فالتعدُّد يعلن الوحدة، وليس العكس، أي أن تعدد المواهب يُظهر الروح الواحد، وبالتالي تعلن المواهبُ الروح القدس الواحد. وعند ذلك ربط الرسول تعدد الأعضاء بالجسد الواحد مؤكداً أن هذا الجسد الواحد هو المسيح:

«كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح» (١كور١٢: ١٢).

فالروح الواحد هو الذي كوَّن الجسد الواحد في أحشاء القديسة مريم. والروح الواحد هو الذي يُظهر المسيح الواحد ويعلنه، لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد. وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة الإيمان أو التعليم العقيدي: الوحدة تُعلَن بالروح الواحد، ولكنها تمارَس على مستوى إظهار الروح القدس الواحد بالمواهب المتعددة، وهي ذات المواهب التي تعلِن تعدد أعضاء الجسد، ووحدته. وقد سبق هذا اجتماع الكثرة وتناولهم الخبز الواحد لكي يصيروا جسداً واحداً، وبالتالي يُصبح الاختبار الإفخارستي غير منفصل عن إظهار الروح الواحد؛ لأن المسيح الذي أعطى الروح القدس، يُعطى بالروح القدس للكنيسة، وهذا مرجعه وحدة جوهر الثالوث، ووحدة النعمة؛ لأن لنا رباً واحداً، إيماناً واحداً، نعمةً واحدةً، جسداً واحداً، معموديةً واحدةً.

ويؤكد الرسول الاختبار العام لكل المسيحيين، هؤلاء الذين يقول عنهم: «لأننا جميعاً بروح واحد اعتمدنا إلى جسد واحد يهوداً كنَّا أم يونانيين» (١كور١٢: ١٣)، فالذي يجمع الكثرة، ويجعل من الكثرة واحداً، هو الروح الذي يجمع الكل في جسد واحد هو المسيح، كما جمع الروح لاهوت الابن الكلمة في أحشاء البتول، لكي يعلن لنا تجسد الرب الواحد يسوع المسيح. يقول القديس باسيليوس في كتاب الروح القدس(٥):

(٥) راجع: الروح القدس للقديس باسيليوس، ترجمة د. جورج حبيب بباوي، مطرانية الغربية للأقباط الأرثوذكس، الكلية الإكليريكية اللاهوتية – سلسلة آباء الكنيسة رقم ١١ – ١٩٨١م.

«في عالم الحياة العقلية لا يمكن أن تستمر هذه الحياة العقلية الفائقة وفق قانونها بدون الروح القدس. إن ثبات العالم الروحي بالروح القدس هو مثل ثبات الجيش وقيامه وفق نظامه العسكري، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إذا غاب قائده، أو مثل انسجام الخورس الذي يتداعى إذا أهمل مديره القيادة وضبط الأنغام» (ف ١٦: ٣٨).

وقانون الحياة العقلية هو قانون الحياة الكنسية، هو الانسجام "الهارموني" الذي لا تذوب فيه الأشخاص، بل يُصاغ التنوع والتعدد على مثال الثالوث، وقد عكست التسبحة السنوية هذه الحقيقة في عبارة موجزة رائعة:

«سبعة رؤساء الملائكة وقوفٌ؛ يسبِّحون أمام الضابط الكل؛ يخدمون السر الخفي. ميخائيل هو الأول، غبريال هو الثاني، رفائيل هو الثالث، كمثال الثالوث»

(ذكصولوجية السمائيين).

ومن ثم تؤكد التسبحة بعد ذلك ضرورة ائتلاف الكنيسة في أنغام القيثارة في ذكصولوجية باكر:

«هؤلاء الذين آلفهم الروح القدس معاً مثل قيثارة، مسبِّحين الله كل حين».

كما يؤكد القداس الإلهي نفس المبدأ، أي الوحدة والانسجام في الطلبة المشهورة التي تسبق صلوات الأواشي:

«اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك؛
طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا؛
لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً،
ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء».

ويجب علينا أن نقرأ هذا النص بدقة؛ لأنه بدون طهارة النفس والجسد والروح لا يمكن أن نصبح جسداً واحداً، فالوحدة لا يمكن أن تُفرض علينا، ولا يمكن أن يقهر الله إرادة الجماعة التي لا تريد الوحدة.

وفي رسائل الأنبا أنطونيوس حديث موجز عن توبة النفس والجسد بالروح القدس، إذ يقول في الرسالة الثالثة:

«من كثرة الضعف وثقل الجسد وحرب الأعداء؛ ذبُلت حواس الجسد الطاهرة، وصارت حواس النفس بغير قوة، ولم تنحل النفس مع الجسد؛ لأن جوهرها عدم الموت، (ومع ذلك) لا تستطيع أن تنعتق (من الخطية) ببرها. ولهذا لم تستطع أن تطلب ما يخصها لترجع إلى حالة خلقتها الأولى، لذلك عمل الله مع النفس بصلاحه، وعلَّمها أن تسجد للآب كما يجب (يو ٤: ٢٤)؛ لأن الله واحدٌ هو، والجوهر العقلي أيضاً كائنٌ في الوحدانية (أي لا وجود حقيقي للحياة الروحية إلاَّ بالاتحاد)».

ولذلك يكمل القديس انطونيوس كلامه قائلاً:

«فليكن هذا الكلام – يا أحبائي – ظاهراً لكم: إن كل المجتمعين (أي الجماعة) إذا لم يكونوا قلباً واحداً، يجلبون على أنفسهم الحروب ويصنعون لهم دينونة» (رسالة ٣: ١).

ويقول في الرسالة السادسة:

«فيا أولادي الأحباء، لا تكلوا ولا تملوا من المحبة بعضكم لبعض، بل اجعلوا هذا الجسد الذي أنتم لابسوه مجمرةً ترفعون فيها جميع أفكاركم ومشوراتكم الرديئة وتضعونها أمام الرب ليرفع قلوبكم إليه. اطلبوا منه بكل قوة العقل أن ينعم عليكم بإتيان ناره غير المادية من العلاء إليكم، لتحرق كل ما في تلك المجمرة

وتطهِّرها .. حينئذ تنظرون أثر إنسان (شكل الإنسان الجديد) طالعاً بالماء (المعمودية) من الينبوع الإلهي (الروح القدس) ويمطر لكم المطر الروحاني الذي لروح البارقليط ..» (رسالة ٦: ٨، ٩).

الرموز الليتورجية للجسد

أنا لا أريد هنا أن أفتح «ملف الجسد»، فهذا موضوع هام جداً أهملناه طوال عصر النهضة القبطية المعاصرة، ففي داخل هذه النهضة تيارات روحية ليس لها جذور في الحياة الليتورجية ولا في العقيدة الأرثوذكسية، وتعبِّر هذه التيارات عن معاداة للجسد، وعن أمراض نفسية معروفة لنا. ولكن ما أود الإشارة إليه هو أن الليتورجية تصف بدقة تامة شكل الجسد الجديد الذي يتكون في المسيح، وكما رأينا من الرسالة السادسة للقديس أنطونيوس، فإن أحد أشكال الجسد هو «المجمرة»، وهو الاسم الليتورجي لوالدة الإله، والمجمرة مثلها مثل العطر (الميرون)، ومثل رموز كثيرة خاصة بالجسد، وهي رموز نابعة من الكتاب المقدس نفسه، وتعود إلى الكون، مثل قطيع الخراف، أبناء النور، الكرمة وغيرها. كما أن هناك رموزٌ تعود إلى الليتورجية، مثل البخور، المجمرة، القربان، الذبيحة الناطقة. ولدينا تداخل جميل وتقاطع بين الجسد في شكله الطبيعي، والجسد المتجلِّي بنعمة الروح القدس، والذي تعبِّر رموز الليتورجية عن شكله الجديد، وعن توبته وجماله، بل وعن قدرتنا من خلال هذه الرموز أن نرى – بشكل جزئي سري – شكل جسد القيامة بالشكل الذي وُصِفَ به في عظات العلامة أوريجينوس، والعظات الروحية للقديس مكاريوس، أي الإنسان الجديد الذي له حواس جديدة يعطيها الروح القدس.

وفي أحد وثائق القرن العاشر يسأل راهبٌ الأب صفرونيوس:

«سؤال: هل يمكن لنا نحن الترابيون أن نرى شكل جسد القيامة؟

الجواب: نراه في رموز صلواتنا، فهو مثل المجمرة التي يصعد منها بخور المحبة. وعندما يحترق البخور، فإن رائحته العطرة تملأ كل ما حولنا، وهكذا تشير المحبة إلى ما هو باقٍ؛ لأن الرسول قال: «المحبة لا تسقط أبداً»، وهي لها البقاء لنحب أجسادنا كعطية من الله، لأننا بالإيمان وفي المسيح نستطيع أن نراها تتجلى بالحياة الجديدة بنعمة الروح القدس. عندما نرشم علامة الصليب، فإننا نميِّز داخلياً الانتقال من الموت والدينونة إلى الحياة الجديدة بمحبة الأخوة كما قال رسول ربنا يسوع المسيح، وهكذا بمحبتنا نميِّز الحياة التي لا تموت.

سؤال: ما الذي يجعل المحبة وأعمال المحبة تبقى؟

الجواب: الله محبة، ولذلك بالنظر العقلي ندرك أن الأمور التي نعملها بمحبة يسوع المسيح مخلصنا لن تموت؛ لأن لها الدوام والبقاء. وخدمة الأخوة بمحبة يسوع، تجلب سلام النفس رغم مشقة الجسد. وسلام النفس لا يموت ولا ينتهي؛ لأنه من رئيس السلام ومكمِّله. وهذا النظر العقلي، يجعلنا نرى كل الأشياء الخاصة بالحياة الجديدة في رموز سوف تُكشف لنا في يوم الدينونة، يوم قيامة الأجساد».

أعود إلى موضوع الثالوث؛ لكي أؤكد لكم أن نسيج الليتورجيات جميعاً؛ أي خِدم المعمودية، والميرون، والإفخارستيا، وباقي الخِدم مبنيٌ على أساس عقيدة الثالوث. فهي، أي عقيدة الثالوث، تشكِّل ''البنية'' الأساسية لتلك الخِدم. وقبل أن ندخل في هذه النقطة، يجب أن نوضح اليوم أكثر من ذي قبل، أن الطقس ليس نظاماً، فهذا خطأ كبير ساد التعليم المعاصر في محاولة للرد على هجوم الكنائس غير الأرثوذكسية، ونحن نقول عادةً إن لكل شيء نظام، والحياة لا تتحرك إلاَّ بنظام، وللجسد نظام ... هذا صحيح، ولكن لكل نظام هدف، فما هو هدف الطقوس، إذا كان الطقس هو مجرد نظام؟

الكلمة المستخدمة في كتب الطقوس هي كلمة ακουλοσια وهي تعني ترتيب وليس نظاماً[٦]. وحسب كتاب رئاسة الكهنوت للاريوباغي، وعظات كيرلس الأورشليمي وغيرهما من كتب الآباء الذين شرحوا الأسرار، نكتشف أن الترتيب يسير في ثلاث خطوات: الاستنارة – التطهير – الاتحاد. هذه الخطوات الثلاثة هي التي جعلت ليتورجية الإفخارستيا – وهي محور وقلب الليتورجيات كلها – تنقسم إلى قسمين: الاستنارة والتطهير، وهو ما يُعرف عند علماء الغرب، باسم ليتورجية الموعوظين، ثم القسم الثاني: الاتحاد، وهو ما يُعرف عند ذات العلماء باسم ليتورجية المؤمنين.

وقد درجنا منذ مطلع القرن المنصرم أن نردد تقسيم الغرب لليتورجية إلى قسمين: قداس الموعوظين، وقداس المؤمنين، وهو تقسيمٌ لا بأس به، ولكن كما نعرف، إذا أطلقنا أسماءً جديدةً على الأشياء، تغيَّرت هذه الأشياء بمرور الزمن واكتسبت – بسبب الأسماء الجديدة – وضعاً آخر. وهنا لابد وأن نسأل:

لماذا لا تسمح الكنيسة للموعوظين بالبقاء بعد العظة، والخروج قبل قُبلة الصلح؟ إن كل المصادر القديمة قبل وبعد التقليد الرسولي لهيبوليتوس تقول لنا: إن الموعوظ لم يتطهر بعد، أي لم ينل الروح القدس، ولذلك كان عدم وجوده، بل إن عدم مصافحته تدل على أنه لم يؤهَّل بعد للاعتراف بالقيامة، أي قيامة المسيح، يؤكد ذلك الترتيب الليتورجي الذي يظهر في:

أولاً: ثالوث الحاضرين: الكاهن – الشماس — الشعب.

إذ لا تجوز الصلاة بغير وجود هؤلاء، وهم حسب الاستعمال الطقسي القديم، جسم الشهادة، والشهادة هنا لا تعني الشهود بالمعنى القانوني، بل شهود حلول الله المتجسد في الكنيسة. والشهادة هنا هي شهادة

(٦) الترتيب (الطقسي) هو نقل المصلي من مرحلة إلى أخرى، مثل خلق العالم إلى السقوط إلى مجيء الرب، ثم استدعاء الروح القدس، هذا هو ترتيب حسب التدبير، أي حسب خطة الخلق والخلاص المستعلَنة في الرب يسوع. والتدبير هو الإيكونوميا أي التدبير الإلهي الذي رتَّب – بدوره – أن يأتي موسى قبل الإنجيل لكي تكشف الشريعة عجز الإنسان (غلا ٣: ٢٣ – ٢٥).

لمبدأ الشركة، أي الشركة في الثالوث، وهي التي تجعل الشركة أساس الصلوات؛ لأن الصلوات في الكنيسة الأرثوذكسية تضم احتياجات الكنيسة كلها الروحية والزمنية، السماوية والأرضية، وتؤكد قبل كل هذا، التضامن الروحي مع كل إنسان في الكنيسة، وهو ما يعني مسئولية كل فرد عن وحدة جسد المسيح. فنحن نحمل مسئولية روحية نحو الراقدين والمسافرين والمرضى والقرابين وسلامة الكنيسة، والمصالحة، وغيرها من المسئوليات التي تقدمها الأواشي والطلبات. هذا هو معنى الشهادة؛ لأن الليتورجية تنزع عن صلواتنا الطابع الفردي، وقد ميَّز المسيح له المجد بين صلاة الجماعة في العظة على الجبل، وصلاة الفرد بتوجيه الكلام إلى الجماعة، وإلى الفرد، كلٍ على حدة. وترك الصلاة الربانية كمثال لصلاة الجماعة.

ثانياً: انتقال الطلبة من الكاهن إلى الشماس إلى الشعب. ما هو المقصود بنداء الشماس؟ يقول الكاهن: اذكر يا رب سلامة كنيستك الواحدة. ومن ثمَّ يطلب الشماس: صلوا من أجل سلامة الكنيسة الواحدة، فيقول الشعب: يا رب ارحم. هذا النمط جرى تعديله في الغرب، بينما احتفظت به الكنائس الشرقية.

لماذا ندخل نحن الثلاثة لكي نصلي معاً على هذا النحو؟

أ– لأن الصلاة شركة الكنيسة كلها.

ب– لأن إنذار الشماس – بشكل خاص – ينقل الصلاة من الهيكل إلى صحن الكنيسة. وهنا يقول كتاب رئاسة الكهنوت، إن الكنيسة تبنى على شكل إنسان، الرأس هي الهيكل والمذبح، والصحن هو باقي الجسد، وبالتالي الصلاة هنا هي صلاة الجسد الواحد، حيث تنتقل الطلبة من الرأس إلى باقي الأعضاء.

هذا يقودنا إلى النقطة الأساسية، وهي الاستنارة بكلمة التعليم، والمعلِّم

هنا قد يكون من غير الإكليروس حسب التقليد الرسولي وعظات العلامة أوريجينوس؛ لأن أغلب هذه العظات كانت تلقى على الموعوظين، وهي تشرح أهم حقائق الإيمان المسيحي، وتترك شرح الأسرار إلى الوقت الذي كان فيه الموعوظ يُختبَر ويُنقَل إلى رتبة المستنيرين.

غير أن ما يجب أن نلتفت إليه هو أن الاستنارة والتطهير بالإيمان والاعتراف وقبول التعليم، هي مرحلة تدوم معنا قبل وبعد المعمودية. وهنا يجب أن نتوقف أمام هذه الحقيقة، وهي أن غفران الخطايا لا يعني فقط العفو عن المخطئ أو الخاطئ، فحصر معنى المغفرة في هذا الجانب وحده هو تعليم الإسلام، و لم يكن هذا التعليم معروفاً في اليهودية، ولا في العهدين. الغفران كلمة كبيرة، وهي تعني: حل الرُّبُط – التصرف بجودٍ وكرم – الاستنارة – الشفاء – المصالحة – رفع عقوبة الموت – تجديد الطبيعة الإنسانية – العودة إلى شركة الجسد الواحد. كل هذه المعاني نراها في كل الليتورجيات وفي كتب الآباء ودون استثناء(٧).

نحن ننال الغفران، أي الاستنارة والتطهير بالصلاة والتوبة، والاعتراف والصوم، ودراسة كلمة الله. والذي يحدد معاني كلمة الغفران هو الصلوات نفسها التي تقال، وعلى سبيل المثال يقول الكاهن في بدء الخدمة:

«باركوا عليَّ. ها المطانية، اغفروا لي»(٨).

وفي التحليل الكبير يقول:

«انعم لنا بغفران خطايانا: باركنا، طهرنا، حاللنا،
وحالل كل شعبك».

وفي تحليل الخدام، يعطي هذا التحليل بشكل خاص؛ ليؤكد وحدتنا مع

(٧) راجع في معاني كلمة المغفرة كتابنا عن التمييز والإفراز، الفصل العاشر: تمييز معاني المغفرة، ص ١٤٢ وما بعدها، منشور على موقع www.coptology.com

(٨) يقول الخولاجي المقدس: ”ثم يصافح إخوته الكهنة ويسألهم السماح والمساعدة له في الدعاء والطلب عنهم وعنه وعن سائر الشعب. وبمصافحته لهم تشهد قلوبهم أنه طيِّب الخاطر من قِبلهم، وأنهم طيبو الخاطر من قِبله وبينهما صلح“. راجع رفع البخور – التهيؤ للصلاة.

معلمي البيعة وصحة الإيمان، فهو أشبه بطلب الإذن بالصلاة من الثالوث والكنيسة الجامعة، وهو ترتيب يؤكد أن الغفران يعني أيضاً وحدة الجسد الواحد على أساس الإيمان.

والخطوات الثلاثة: الاستنارة والتطهير والاتحاد هي الترتيب أو الطقس الذي يكشف عن البنية الثالوثية للخدمات.

ولهذا السبب نحن نحتاج لأن ندرك أن العبارة التي تبدأ بها الخدمة: ''سلاماً وبنياناً لكنيسة الله''، إنما تؤكدها الطلبات:

«ثبِّت أساس الكنيسة – وحدانية القلب التي للمحبة
فلتتأصل فينا، لينمُ بر الإيمان. سهِّل لنا طريق التقوى
.. لتنقضِ افتراقات الكنيسة». (القداس الغريغوري).

والبناء والنمو من المفاتيح الهامة في اللاهوت الشرقي، فنحن ننمو «بناءً من الله» (٢كور٥: ١)، و«ننمو نمواً من الله» (كولوسي٢: ١٦)؛ لأننا «بناء الله» (١كور٣: ١٩)، و«يسوع حجر الزاوية» (أف ٢: ٢٠) و«البناء ينمو هيكلاً للرب»، وهو حسب كلمات الرسول: «غير مصنوع بيد» (٢كور ٥: ١٠). وهو ذات الوصف الذي أطلقه الرسول على المعمودية: «ختان المسيح غير المصنوع بيد» (كو٢: ١١)؛ لأنه ''من فوق من الله، ليس من هذه الخليقة''، ولذلك نحن كما يقول الرسول: «نُبنى في الروح القدس» (أف٢: ١٢). و«بنيان جسد المسيح» (أف٤: ١١) هو الذي يُبنى بالمحبة (أف ٤: ١٦). وهذا هو قانون الحياة الجديدة.

وهنا يجب أن أُشير إلى أنه لدينا تعبير هام جداً ورد في صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي:

«أرسل إلى أسفل من علوك المقدس،
ومن **مسكنك المستعد،**
ومن حضنك غير المحصور،

ومن عرش مملكة مجدك،
البارقليط روحك القدوس ..».

وأريد أن أقف عند تعبير «**مسكنك المستعد**». يقول القديس باسيليوس عن الروح القدس:

«حقاً إن الروح القدس هو مكان القديسين،
وكل قديس هو حقاً مكان الروح القدس؛
لأنه يقدِّم ذاته ذبيحة وهيكلاً لسكنى الله،
ولذلك قيل إنهم هيكل الله (١كور ٦: ١٩)»[٩].

الروح القدس هو مسكن القديسين، وهو مكان القديسين في الثالوث، ولذلك هو مستعد دائماً أن يقبل الذين يأتون إليه، وهو يمارس الإخلاء التام لذاته- كما يقول ديونسيوس السكندري - إذ يقبل أن يسكن في فقر الطبيعة الإنسانية. والابن في حضن الآب، كما تقول صلاة قسمة عيد الميلاد: ''الكائن في حضنه الأبوي كل حين''، ويجب أن أُضيف، حتى وهو معلق على الصليب. ولذلك، من حضن الآب، حيث يستريح رأس الكنيسة ربنا يسوع المسيح، والذي دخل إلى قدس الأقداس الموضع الذي لم يدخل إليه ذو طبيعة بشرية، أو حسب تعبير رسالة العبرانيين: ''ليظهر أمام وجه الآب لأجلنا''، المسيح الذي هو في حضن الآب دائماً، هو أيضاً مكان إقامة الروح القدس، بل هو المكان؛ لأنه هو الذي يسكب الروح القدس على الكنيسة، وهو المسكن المستعد الذي فيه يستريح الروح القدس، ومنه ينحدر على باقي أعضاء الجسد.

هكذا تدعونا الليتورجية إلى أن نكون شعبَ رجاءٍ في مراحم الله؛ لأنها تنادي بنمو وبناء الإنسان، وهذا النمو يحدث في هذه الدنيا، بكل ما فيها من فقر وضعف وجهل وشر ..

إن تراثنا الأرثوذكسي يفرض علينا - بكل ما يملك من أصالة - أن لا

(٩) الروح القدس للقديس باسيليوس، مرجع سابق، ف ٢٦: ٦٢ ص ١٥٥.

نقع في ذات الفخ الذي وقعت فيه حركة الإصلاح ... فالخطية لا تشرح لنا رحمة الله ومحبته، بل رحمة الله هي التي تشرح لنا الخطية. الخطية هي التعدي، وهي غياب الخير وبالتالي لا يمكن أن نفهم ما هو كائن بواسطة التعدي، بل نفهم التعدي بواسطة ما هو كائن. لا يمكن أن ندرك ما هو غائب إلاَّ بواسطة ما هو حاضر، وهذا يفرض علينا أن نعيد بحث موضوع الخطية في ضوء التقديس والتطهير والمحبة الإلهية كما تعلنها الليتورجية.

لنبدأ بما هو ايجابي حتى ندرك ما هو سلبي، لئلا إذا بدأنا بما هو سلبي نفشل في إدراك ما هو ايجابي.

لو قلنا على سبيل المثال إن الخطية هي ظلمة، فكيف تشرح الظلمة وجود النور؟ العكس هو الصحيح، النور هو الذي يشرح لنا الظلمة .. وهكذا بعد أن ندخل مرحلة الاتحاد نحن لسنا بلا خطية. نحن نعود إلى نفس الصلوات في كل أسبوع، وربما في كل يوم لكي نبدأ من جديد بالاستنارة والتطهير والاتحاد .. لكي نصل إلى ''كمال السر''. وكما تقول الليتورجية: عندما ننمو؛ ''نضيء بشكل المسيح المحيي''.

الفصل الثاني

العلاقة الجديدة بين الثالوث والإنسانية في المسيح وبالروح القدس

في بداية القداس يقول الكاهن:

«أنت يا رب علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص».

إن معرفتنا بالأسرار نابعة من المسيح. فالمسيح هو وحده الذي يشرح المسيح بالروح القدس. هذا هو الدور النبوي للرب، أي المعلم. واختيار كلمة نبي تفيد التعليم الرؤيوي المبني على معاينة السر. وتقول الصلاة بعد ذلك:

«أنت دعوتنا نحن عبيدك الأذلاء غير المستحقين؛
لنكون خداماً لمذبحك المقدس».

فالخادم لا يدخل بسلطة خاصة يملكها؛ فهذا هو تشريع مجمع ترنت في الغرب، أي تشريع القرن السادس عشر، بل كما تقول الصلاة:

«أنت يا سيدنا اجعلنا مستوجبين بقوة روحك القدوس
أن نكمِّل هذه الخدمة، لكي بغير وقوع في دينونة أمام
مجدك العظيم؛ نقدم لك صعيدة البركة مجداً وعظم بهاء
في قدسك».

فالروح القدس هو النعمة التي يرسلها المسيح لمن يخدمون السر. ويعبِّر القداس الكيرلسي – في صلاة الحجاب – عن هذا بشكل أوضح:

«أعطني يا رب روحك القدوس، النار غير المادية التي لا
يُفَكَّر فيها التي تأكل كل الضعيفات، وتحرق الموجودات
الرديئة، ليميت حواس الجسد التي على الأرض، ويلجم
حركات الفهم التي تقوده إلى الخيالات المملوءة أوجاعاً
وآلاماً، وكما يليق بالكهنة، يجعلني فوق كل فكر ميت،
وليجعل فيَّ الكلمات المُطَهِّرة، لكي أكمِّل هذا القربان

الموضوع، الذي هو سر جميع الأسرار بصحبة وشركة مسيحك».

فالروح يضع الكلمات الـــمُطَهِّرة، أي كلمات التقديس في قلب الكاهن لكي يعرف، ليس من التلاوة، بل بصحبة وشركة المسيح كيف يكمِّل تقديم القربان.

هذه هي العلاقة الجديدة التي جاء بها الثالوث. المسيح يعلن ذاته بالروح القدس للطبيعة المخلوقة من العدم، والمدعوة إلى الاتحاد بالله.

وإذا كانت الاستنارة والتطهير تتم بالروح القدس، حسب ما هو ظاهر من هذه الصلوات، فإن العلاقة الجديدة تعتمد اعتماداً مطلقاً على نعمة الله، وعلى قبول الإنسان لهذه النعمة، ولكن يبقى سؤالٌ طُرِحَ في الغرب منذ بداية العصر الوسيط، وأُعيدت مناقشته في احتدام الجدل مع حركة الإصلاح، وبُعِثَ من جديد في إطار الحوار المسكوني بين الكنيسة الكاثوليكية، والكنيسة البيزنطية: ما هي النعمة؟ وما هو دور النعمة في حياة الإنسان؟ والجواب طويلٌ ومتشعِّب ويخص الجدل اللاهوتي في الغرب. أمَّا الشرق فقد احتفظ – منذ العصر الرسولي – بإجابة واحدة، وهي **أن النعمة هي المسيح نفسه**، وأن **هذه النعمة** – وهي دائماً بصيغة المفرد وليست بصيغة الجمع – هي **نعمة واحدة تُعطى من الآب بالابن في الروح القدس**، وأن تنوُّع وتعدُّد مستوى العطاء، إنما هو في النهاية يقود إلى المسيح، وإلى الاتحاد بالله.

١– النعمة هي معروفٌ وإحسان.

٢– النعمة هي فضلٌ وجُود.

٣– النعمة هي المسيح.

المعنى الأول يظهر في حديث الرسول بولس عن عطاء وصدقة كنائس مكدونية: «أعطوا حسب الطاقة أنا أشهد فوق الطاقة .. ملتمسين منا بطلبة كثيرة أن نقبل النعمة وشركة الخدمة التي للقديسين» (٢كو ٨: ٤).

والفضل والجود يظهر في نفس الإصحاح: «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره» (٢كو ٨ :٩).

ويؤكد لاهوتيو كنائس الإصلاح أن هذا المعنى يمس أدق نقطة في لاهوت هذه الكنائس، وهو موضوع التبرير بالإيمان، فهو جُود وفضل الله حسب كلمات الرسول في (رو ٣: ٢٢) «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدَّمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله».

والمعنى الأول والثاني لكلمة نعمة لا يُشكِّل مشكلة بالمرة. فالله يعطي نعمة الوجود وتفيض عطاياه ونعمته على كل الخليقة.

ولكن المعنى الثالث هو الذي تجود به الليتورجية، حيث تقول الكنيسة في أوشية الإنجيل للسيد المسيح:

«أنت هو حياتنا كلنا،
وخلاصنا كلنا، ورجاؤنا كلنا،
وشفائنا كلنا، وقيامتنا كلنا».

المسيح هو الملء، والفيض، وهو ما توجِّه الليتورجية أنظارنا إليه، هو عطية الآب لنا. هكذا تقدم ليتورجية ذهبي الفم نص يو ٣: ١٦ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي يحيا به العالم»[١٠]، والنص ذاته يظهر في ثيئوطوكية الاثنين[١١]، بل هو شرح القديس كيرلس السكندري. والبذل كحركة محبة لا يمكن أن يكون متجهاً إلى الفراغ والعدم، لابد وأن يكون هناك مَن يأخذ. وإذا كان الآب يبذل الابن ويقدِّمه، فالذي يأخذ هو العالم، الخليقة.

كذلك تدخل كلمات رو ٥: ٢٠ في كل صلوات الكنيسة الشرقية

(١٠) راجع نشيد التقديس، القداس الإلهي لأبينا الجليل في القديسين يوحنا ذهبي الفم رئيس أساقفة القسطنطينية: "قدوسٌ أنت وكامل القداسة، أنت وابنك الوحيد وروحك القدوس. قدوسٌ أنت وكامل القداسة، وعظيمٌ جلال مجدك. لقد أحببت عالمك؛ حتى أنك بذلت ابنك الوحيد لكي لا يهلك من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية".

(١١) "افرحوا وتهللوا يا جنس البشر؛ لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب عن المؤمنين به لكي يحيوا إلى الأبد. لأنه غُلِبَ من تحننه وأرسل لنا ذراعه العالية". القطعة الخامسة من ثيؤطوكية الاثنين.

«حيث كثُرت الخطية ازدادت النعمة جداً». وعبارة «كثُرت الخطية» تقال على موضع الجمجمة، حيث صُلِبَ الرب، وهو الموضع الذي تفاضلت وازدادت فيه النعمة. كما تقال عن الإفخارستيا: «وحيث كثُر الإثم فلتكثُر هناك نعمتك». وتقال أيضاً عن عطية ونعمة الروح القدس، عندما قارن الرب البشر الأشرار الذين يعطون عطايا صالحة لأبنائهم وقال: «وإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه» (لو ١١: ١٣).

دعائم النعمة

تنقلنا الليتورجية إلى قلب الإنجيل مباشرةً، فهي صلاة وشركة، ولذلك لا تدخل في متاهات الأبحاث التاريخية واللغوية. فالنعمة في الليتورجية تقوم على دعائم ثابتة هي:

أولاً: وساطة المسيح:

حسب صلاة الصلح في القداس الغريغوري:

«لا ملاك ولا رئيس ملائكة .. بل أنت بغير استحالة
تجسَّدت وتأنست وشابهتنا في كل شيء
ما خلا الخطية وحدها».

ثم تقدم عمل المسيح الفائق:

«صرت لنا وسيطاً لدى الآب،
والحاجز المتوسط نقضته،
العداوة القديمة هدمتها،
أصلحت الأرضيين مع السمائيين،
وجعلت الاثنين واحداً،
ملأت الكل بلاهوتك».

ووساطة المسيح تُترجَم عملياً إلى صلاة الصلح، وهي علامة تميِّز ليتورجية الإسكندرية، فقد أخذ الآباء قضية المصالحة بكل اهتمام وغيرة، فلا تناول لمن يحيا في خصام، ولا سلام لمن يحيا في عداوة. وهنا تؤكد الليتورجية، ليس فقط وساطة المسيح بين الآب والروح القدس والبشر، بل هي وساطة مع الثالوث، فالمصالحة هي مع الابن أيضاً، فالمسيح حسب صلاة الصلح في القداس الباسيلي هو الذي: ''هدم الموت بظهوره المحيي''، وجاء بالمصالحة والسلام. لقد أعطى هو السلام، ولذلك تطلب الصلاة، قبل أن ننال باستحقاق مغفرة خطايا الآخرين، أن نكون في سلام مع الله بالمسيح ومع إخوتنا، وتأخذ يهوذا كمثال لمن رفض الصلح والسلام، حسب نص صلاة القديس ساويرس الإنطاكي التي تُستخدم في القداس الغريغوري:

> «اجعلنا مستحقين نحن أيضاً يا سيدنا في هذه الساعة المقدسة بفكر واحد، بغير شيء من التشكك وبقية الشر، أن نقبِّل بعضنا بعضاً بقبلة مقدسة، ولا تطرحنا في الحكم، وإن كنا غير أنقياء بالكمال من حمأة الخطية والخبث وتذكار الشر القاتل، كما يرضي صلاحك؛ أمح كل أدناس سيئاتنا لكي لا يكون لنا هذا السر الذي للاهوتك دينونة ولا وقوع في دينونة».

ثانياً: عطية المسيح:

تقول الليتورجية للمسيح في أكثر من موضع في القداس الغريغوري:

- «أنت طُهر العالم كله»،
- «الذي أظهر لنا نور الآب»،
- «الذي أنعم لنا بمعرفة الروح القدس الحقيقية»،
- «أنت الذي وضعت ذاتك وأخذت شكل العبد، وباركت طبيعتي فيك. قتلت خطيتي بقبرك.

أصعدت باكورتي إلى السماء».

وما أكثر ما يقال، ولكن كل هذه هي أعمال الله الموجَّهة للإنسانية في المسيح. لقد أتى المسيح كل هذه الأفعال وغيرها، وهو «الإله الوحيد الجنس الذي في حضن أبيه» هو الذي يقدِّس ويوزِّع خبز الحياة، هو الذي – بصوته وحده – يحول الخبز والخمر، وهو الذي يشفي بجراحات محبته ..

وكما أن المسيح صالحنا مع أقنومه ومع الآب والروح القدس، فإن قداس مار مرقس يقدم لنا هذه الحقيقة بشكل واضح عندما تقول الليتورجية عن تقدمة الإفخارستيا:

«هذا الذي من قِبَلِه (بواسطته) نشكر، ونقرِّب لك (الآب) معه (الابن)، ومع الروح القدس الثالوث المقدس المساوي غير المفترق هذه الذبيحة الناطقة، وهذه الخدمة الغير دموية».

وبعد ذلك مباشرة تقول نفس الصلاة:

«لأن اسمك عظيم يا رب في جميع الأمم،
وفي كل مكان يقدَّم بخورٌ لاسمك القدوس،
وصعيدة طاهرة، وعلى هذه الذبيحة وهذا القربان».

وطبعاً لكي نتأكد من أنها تقدمة للثالوث، نكتفي بالإشارة إلى رشومات الحمل التي تتم باسم الآب والابن والروح القدس؛ لأن تقدمة الكنيسة للثالوث تؤكد ما سبق وقلناه من أن الابن المتجسد هو في حضن الآب، ولذلك لا يمكن فصل الابن عن الآب والروح القدس. وصعيدة سر الشكر تقولها الكنيسة للثالوث؛ لأن عطايا المسيح في هذا السر هي التي تفتح لنا حضن الآب، وتصالحنا معه، وتجعلنا شركاء الحياة الجديدة التي جاء بها، والتي تعطى بالروح القدس، وهذا هو غاية استدعاء الروح القدس في القداسات، فالمسيح يعلن الآب، ويعلن نفسه في الآب بالروح القدس. ولا تزال الفكرة الرسولية القديمة، التي تؤكد

إعلان الابن للآب والروح القدس في نهاية صلاة القداس الباسيلي:

«فمنا امتلأ فرحاً ولساننا تهليلاً من أجل تناولنا من أسرارك غير المائتة يا رب؛ لأن ما لم تره عين ولم تسمع به إذن ولم يخطر على قلب بشر .. هذا أعلنته للأطفال الصغار الذين لبيعتك المقدسة. نعم أيها الآب إن هذه هي المسرة التي كانت أمامك لأنك رحيم، ونرسل لك إلى فوق المجد والإكرام أيها الآب والابن والروح القدس».

المسيح حياتنا وعالم الرموز والقياس:

الإعلان عن الآب، وعطية ونعمة الحياة في المسيح بالروح القدس، ليست موضوعات عقلية للتأمل، ولا هي أفكار مجردة، ولا هي تدريب فلسفي ميتافيزيقي. فالمسيح يقدم لنا حياته في عدة أشكال:

أولاً: بالكلمة.

ثانياً: بما أنجزه من تحول في الكيان الإنساني.

ثالثاً: بعطية خبز الحياة الإفخارستيا.

رابعاً: بعطية وسكنى الروح القدس، لكي يقودنا الروح إليه.

هذه الدعائم الأربعة مثل حلقة واحدة يقود أيٌّ بند منها إلى الآخر، إذ لا يمكن فصل الكلمة عن الأسرار، أو الروح القدس عن الكلمة، لأنه لا يجوز فصل الابن عن الروح طالما أننا نؤمن بوحدة الجوهر. وإذا كان التمييز العقلي يدعونا إلى التحليل والترتيب، فإن النعمة الواحدة المتعددة الجوانب لا يجب أن تتجزأ في عقل وفي وجدان المسيحي، بل يجب أن تبقى النعمة الواحدة.

كان اللاهوت المدرسي *Scholastic* هو لاهوت أوروبا الذي غذَّى العصر الوسيط كله، ودُعي بالمدرسي؛ لأن أساتذة اللاهوت تركوا كتباً

دراسية، انحصرت مهمة الذين أتوا بعدهم في شرح هذه الكتب وإضافة هذه الشروح لكي تُضم إلى مواد الدراسة.

لقد جاء هذا اللاهوت لكي يخلق نظاماً عقلياً متماسكاً، وعلى أساس فلسفي استطاع أن يشرح كل عقائد المسيحية بطريقة عقلية جيدة، تفيد الذين يدافعون عن الإيمان، ولكن هذا اللاهوت لم يدرس الليتورجية بالمرة، بل وترك لنا الكثير من المشاكل، وأهمل الاختبار المسيحي.

واعتبر اللاهوت المدرسي النعمة *Value* و *Object* ولذلك تحدَّث اللاهوت المدرسي عن الأسرار على أنها وسائط نعمة، وخير مثال على ذلك هو الفصل الخاص بالأسرار في الخلاصة اللاهوتية *Summa Theologica* وهي كما يعرف الدارسون تشغل القسم الثالث من الخلاصة اللاهوتية. واعتبر توما الإكويني الأسرار من المسائل التي تدخل تحت بند *Virtue of Religion* وهي الأمور التي تجعل الإنسان قادراً على الاتصال بالله مثل التأمل، والصلاة، وتقديم النذور والعشور، وأخيراً الأسرار.

واستخدم توما الإكويني كلمة ''قنوات'' *Channels* للنعمة، لأن الأسرار تنال فاعليتها من المسيح(١٢). وهكذا دخل إلى اللاهوت المدرسي هذه التعبيرات: الأسرار واسطة للنعمة – تسبب النعمة – تحتوي على نعمة – تمنح نعمة. ومن هنا نشأت الدراسة الطويلة عن السر، والعلامة، ومفاعيل السر، والنعمة، ثم العلاقة بين هذه العناصر. وقد ترتب على ذلك ظهور بعض المشاكل:

المشكلة الأولى:

هي مشكلة اللغة التي استُخدمت، فالكلمات هي الأدوات التي تجعلنا قادرين على التعرف على ما يحدث في العالم وفي داخل الحياة الإنسانية، مادية كانت أم عقلية. وقد فصلت مدارس العصر الوسيط الفلسفية بين اللغة وما وراء الطبيعة. وغني عن البيان أن اللغة تنتمي بشكل نهائي إلى ما هو

(١٢) الخلاصة اللاهوتية: III, 9 , 60.

إنساني فقط، فهي التي تُتَرجِم كل ما هو إنساني، ومع الترجمة تسقط معاني وأحاسيس لا يمكن أن تُتَرجَم. فلو قلنا لشخص ما: «أنت عسل»، فما هو المقصود بالضبط من وصفه بأنه «عسل»؟ طبعاً لا يمكن أن يكون القصد بهذا الوصف أنه تحول إلى نوع من العسل، وإنما القصد هو هنا هو العلاقة بين حلاوة العسل والشخص الذي نقارنه بالعسل. وتأتي أجيال تقرأ ما نكتب، ثم تنقل ما وصلها بلغة ومصطلحات السابقين، أي بلغة مجردة دون أن تفطن إلى تلك العلاقة، ولكنها – في ذات الوقت – تضيف إليها وتحذف منها، وهذا هو ما حدث للكلمة ''علامة *Sign*''، فهي عند القديس أوغسطينوس تعني حضور الله الثالوث، وهو الحضور الذي يفوق الإدراك، ولكن تراه عين الإنسان الداخلية، ولذلك لا يتردد أوغسطينوس في أن يقول إن اللغة هي أحد نتائج خطية الإنسان، وأحد نتائج الخطية الأصلية؛ لأن الشر جفف ينابيع الرؤية الداخلية. وعجزُ الإنسان عن معرفة الله، نراه في التراث الوثني، وفي هرطقة ماني التي كان أوغسطينوس يكتب ضدها(١٣).

وهكذا جاءت مشكلة اللغة، بمشكلة أكبر، وهي العلاقة بين النعمة والمسيح. كان فكر العصر الوسيط يفترض وجود ثنائية بين الإنسان وبين الموضوعات التي يدرسها، ويفترض وجود ثنائية بين *Object and Subject* وتطورت هذه الثنائية إلى أعظم انفصال بين الإنسان والعالم على يد ديكارت *Decartes* منذ أفلاطون.

والإنسان يرى في الفلسفة أن الوجود *Being* هو أحد جوانب *eidos* الهوية. وجاء ديكارت ليقول: ''أنا أفكر *Cogito*''، وتحول الفكر هنا إلى دليل على الوجود عندما قال: ''أنا موجود''، فاليقين والدليل على الوجود هو في الفكر. وهكذا صارت الهوية الإنسانية *entity* والوجود يُستَدل عليه بما يدركه الإنسان، أي أن الإدراك هو دليل على الوجود، ولذلك صارت كلمة ''أنا *I* '' هي ''*Subject*''، وصار الإنسان هو محور الحقيقة. يتضح من

(13) De Gen . Contra Manich II, 31

ذلك أن هذا الاتجاه الفلسفي قلب دور الرمز، فصار اعتقاد الإنسان وإدراكه وفكره هو الذي يعطي للرمز قيمته. وأصبح الرمز عاجزاً عن أن يكون له أي قيمة في ذاته.

المشكلة الثانية:

هي مشكلة القياس في المنطق واللاهوت *Analogy* والقياس هو استخدام صفات معينة إنسانية مثل القدرة، ومن ثم تطبيق هذه الصفات على الله بإضافة عنصر المطلق وغير المحدود. وهكذا تستطيع أن نقول إنه بالقياس على وجود الإنسان في الزمان والمكان، الله موجود في كل زمان ومكان. المشكلة هنا ليست الصواب والخطأ، وإنما هي مشكلة المعرفة النظرية التي تجعل الإنسان دائماً يعود إلى ذاته كمصدر للحق والمعرفة.

هكذا كان الوضع قبل حركة الإصلاح. الإنسان هو محور ومصدر كل شيء، والإدراك يعتمد على علامات وقياس، هو ثمرة ذكاء الإنسان وقدراته.

يضاف إلى هذا **مشكلة ثالثة**، وهي الحياة السمائية. جغرافياً هي فوق، بعيدة، وكل ما نعرفه عنها هو العلامات والقياس الذي يولد في ذاكرة وعقل الإنسان.

هذه المشاكل الثلاثة خلقت شعوراً قوياً باغتراب الإنسان عن الله، وغياب الله عن دنيا الإنسان.

الليتورجية وحضور الله:

يقول أوغسطينوس: «من الضروري أن نتكلم لكي نفهم حتى أنفسنا، ولكي لا يصبح الله موضوعاً غامضاً». فالخطاب أو الحديث أو الحوار ضروري جداً. وهكذا تقدم لنا الليتورجية ما هو مقدس وإلهي ليس بواسطة مقولات فلسفية *Categories* بل بواسطة حدث مقدس *Sacred event* وهي بذلك تعيد الإدراك والفهم إلى أوضح شيء في حياة الإنسان، وهو العلاقة *Relation* بين الأشياء؛ لكي يستوعب الإنسان من خلال هذه العلاقة ما يجب أن يفهمه ويحياه، أي أنها دعوة إلى تكوين علاقة مع ما هو مقدس. يقول Stefan George:

> Thus sadly did I learn this: resignation where the word fails, nothing is there.
>
> تعلمت بحزن هذه (الحقيقة) أن ابتعد وأستقيل؛ لأن الاستقالة تحدث عندما لا يكون لدينا كلمة، وعدم وجود الكلمة يعني عدم الوجود (ترجمة تفسيرية).

الليتورجية تتجاوز مشكلة اللغة والكلمة والقياس، عندما تجعل الحدث المقدس مفتوحاً تماماً للفهم من خلال الصلاة، وتصبح الصلاة نفسها متضمنة هذه العناصر:

أولاً: الصلاة – القراءة والطلبة.

ثانياً: الاحتفال الطقسي الرموز.

ثالثاً: الإعلان عن نعمة تعطي الشركة في الأسرار.

رابعاً: تأكيد العلاقة لما يحدث من تغيُّر في علاقة الإنسان بالله وفي كيان الإنسان نفسه.

ولذلك يجب أن نفهم الليتورجية بشكل مختلف عما جاءت به فلسفة أرسطو والنهضة العلمية. فالليتورجية لا تنتمي إلى العالم الطبيعي أو الإنساني الذي يتم فيه كل شيء حسب القياس *Cause and effect* بل حسب

الشركة؛ لأن أساس الشركة في اللاهوت المسيحي هو تجسد الكلمة ابن الله الذي جمع اللاهوت والناسوت معاً. والفعل ''جمع'' مأخوذ من المقالات الأربع ضد نسطور، فالمسيح هو *Synod* سينودس الله والإنسان. والتجسد يعني أن كل أفعال الله وكلماته متجسدة، أي تنتهي بشكل خاص إلى الجسد وإلى حقيقة الوجود الإنساني في الجسد *Concreteness of the body* هكذا تتحدث الليتورجية الأرثوذكسية عن الكلمة باعتبارها ''الصوت الإلهي'' (البيزنطية)، و''أنفاس الله'' (القبطية)، وينقلنا هذا إلى حقيقة *Phonetic*، وإلى حركة الروح القدس بواسطة الصوت لأن الصوت *Phone* قريبٌ إلى الحس والإدراك أكثر من الكلمة المكتوبة. وقد حول التجسد الصوت إلى أفعال، وإلى حركات لجسد ابن الله. فقد مَدَّ هو يديه على الصليب، وذاق الموت بالجسد، وهكذا تحولت الكلمة إلى صوت، إلى حس، وإلى فعل يفهمه الإنسان من خلال فهمه للجسد. وهكذا جاء العصر الحديث يبحث في علاقة الكلمة بالجسد الإنساني، ليقول *J. Lacan* : ''إن اللغة البشرية هي جسد دقيق أو لطيف *Subtle* ولكنها مع ذلك هي جسد''(١٤).

فالكلمة تُفهَم من خلال الصور والحركات الجسدانية *physical images* التي تشير إلى الموضوع، وبذلك يصبح الموضوع أمام إدراك العقل والإحساس بشكل مباشر.

وهكذا إذا استطعنا أن نكوِّن صورةً أو عدةَ صورٍ عن جسد المسيح، لاستطعنا أن ندرك كل رسالته لنا، فقد أعلن التجسد ما خفي في جوهر اللاهوت، وجعل حقيقة الله تفهم جسدانياً، أي من خلال الصور والأحاسيس التي ينقلها الجسد الذي أخذه من القديسة مريم، والذي تعبِّر عنه الكلمات. لم يجسِّد الابن الثقافة والحضارة، بل جسَّد الله، وجسدُ الإنسانِ جسَّد الله، بأن نقل اللاهوت إلى ما هو إنساني، وجسَّد الإنسان عندما جعله يدرك كل شيء من خلال الجسد، الذي جعله – حسب تعبير القديس أثناسيوس – أداةً

(14) Ecrits p. 301.

Organon وبالتالي صارت هذه الأداة هي صوتٌ يصدر عن ''أنفاس الله''.

لقد تحول الجسدُ إلى رسالةٍ، ونقل الجسدُ هذه الرسالة نقلاً مادياً، في اللحم والعظم، فقد أعلن المسيحُ المحبةَ ليس كفكرة ومبدأ عقلي، بل كحقيقة تعبِّر عنها يديه وقدميه وجسده كله، ذلك الجسد الذي قدَّمه في الإفخارستيا. ولذلك تجيء قصة تلميذي عمواس، لتؤكد لنا ما سبق أن قلناه من أن المسيح هو الذي يشرح الكتاب المقدس (لوقا ٢٤: ٤٤ – ٤٥).

ويسوع هنا ينال اللقب الإلهي الخاص بالله في العهد القديم ''الحي'' (لوقا ٢٤: ٥). والحي لا يُرى، بل هو يُظهِر نفسه *Ophte*، وهو فعل يؤكد أن المسيح يُعلِن، يُظهِر نفسه، وقد ورد هذا الفعل ١٣ مرة في لوقا، و٤ مرات في كورنثوس الأولى ١٥: ٣ – ٨، و٢٢ مرة في كل العهد الجديد. ويفتح الرب عيني تلميذي عمواس، لكي يرياه، وهو ما تحرص عليه صلوات استدعاء الروح القدس في عبارة: ''ينقلها ويُظهِرها قدساً لقديسيك'' فالروح هو الذي يعلن لنا جسد الرب ودمه.

فالعناصر الأربعة التي أشرت إليها: الصلاة، الطقوس، والإعلان، والشركة في نعمة الله، وهي تحول الكيان الإنساني، كلها تستوجب إعادة تفسير الرمز على أساس ما جاء في الليتورجية، فهو رمزٌ يؤكد ما هو حاضرٌ في الواقع، ما تعلنه الكلمة والصلاة، ما تعبِّر عنه الطقوس، ما يُوهب في العلاقة مع الثالوث من نعمة، وهكذا يصبح الرمزُ دليلاً على هذه الحقيقة، ومؤكداً لها.

يؤكد الأب شميمان وغيره إن كلمة رمز في اليونانية *Symballein* هي وضع الأجزاء معاً لكي تظهر الصورة، أو كما يقال في اليونانية *Symballein logous* تبادل الكلمات معاً *exchange words* ولذلك يقول عالم الاجتماع الفرنسي *Ortigues*: «الرمز لا يرمز إلى شيءٍ آخر؛ لأن *Symbol* ليس علامة *Sign*. الرمز هو جزءٌ من آخر، ولذلك هو يشير إلى المعنى المتكامل بوجود الآخر»[١٥]، فالرمز إذن يشير إلى نفسه وإلى ما يحتويه. فالماء في

(15) Le Discours et le Symbole, 1982, p 65

المعمودية يحتوي عنصر الاغتسال، ولذلك توصف المعمودية بالحميم، والخبز في الإفخارستيا يحتوي عنصر الأكل والتغذية، وهو أي الخبز مرتبط رمزياً بالشكر والتسبيح على عطية الله.

ويحتوي الرمز على ثلاثة عناصر هامة:

أولاً: إنه يوحِّد العابدين الذين من خلال الطقوس يدركون معنى الرمز ويشتركون فيه.

ثانياً: إنه يُعلِن بواسطة ما يتضمن، ما تؤكده الصلوات أي اللغة، ويشرح الرمز ما في الصلوات.

ثالثاً: كما يقول *Tadorov*: "الرمز هو مجموعة من العلامات *Polysemous* فهو يحرك خيال الإنسان بما يعرف من العالم الـمُعاش، وينشِّط الذاكرة، ويدخل من خلال الحواس إلى الفكر، ويجعل وحدة الفكر والشعور أو الأحاسيس تلتقي عند الجوانب الرمزية، أي العلامات التي يدركها الإنسان"(١٦). وتصبح كما يقول *Todorov*، لقاء الإنسان مع الله في مستوى تلعب فيه الرموز والاستعارة والمجازات الدور الأكبر لأدراك أعماق السر.

وحسب تراثنا الشرقي لا يمكن فصل الرمز عن السر، وهنا تجعلنا الليتورجية نكسر الخبز ونقدِّس الخمر بطريقة رمزية، مثل فصل الاسباديقون ووضعه في الكأس لتأكيد قيامة المسيح ووحدة الذبيحة أي الجسد والدم، أو رفع الابروسفارين إشارةً إلى القيامة، ثم تقسيم الجسد المقدس إلى قسمين هو الثلث، والثلثين، وهو رمز واضح لعقيدة الثالوث؛ لأن الواحد من ثلاثة يظل دائماً الواحد بين اثنين، ولذلك يقسم الجسد ١/٣ لتأكيد تخصص أقنوم الابن بالتجسد والموت والقيامة، ويظل الواحد أي الابن الوحيد بين الآب والروح القدس.

وهكذا – حسب الطقس – يقوم الرمز بدور أساسي في الإعلان عن حياة المسيح، وهو دورٌ لا يمكن فصله عن السر.

(16) Theories du symbole, 1977, p 75

الفصل الثالث

التحول في كيان الإنسان، أو الخلق الجديد

الإفخارستيا جسد المسيح تكوِّن الكنيسة

تعبير الكنيسة جسد المسيح، وهو تعبير خاص بالعبادة أو الحياة الليتورجية، وهو يمس بشكل مباشر حقيقة الوجود المسيحي في العالم. **فنحن الذين اشتركنا في حياة المسيح، في موته وصلبه ودفنه وقيامته، ثم بالشركة في الجسد والدم، لا يمكن أن نكون مجرد بشر عائشين بهوية *Identity* أو بكيان آخر غير كيان المسيح نفسه**؛ إذ كيف يمكن أن يقال عنّا نحن البشر إننا إخوة للرب، وهو «البكر» بين إخوة كثيرين؟ ما الذي يجعلنا إخوة ولنا قرابة الدم واللحم، إلاَّ لأننا نولد من الروح القدس والماء كما وُلِدَ هو من الروح القدس والقديسة مريم. فالأصل الروحي واحد وهو الروح القدس، وإذا اختلف الماء عن العذراء، فالسبب واضح، وهو أن الابن دخل إلى حياتنا الإنسانية لاهوتاً بلا جسد، فهو لم يكن متأنساً وإنما تجسَّد وتأنس من القديسة مريم، ولذلك احتاج إلى امرأة لكي يأخذ منها الجسد. أمَّا نحن، فندخل الحياة الإلهية ولنا طبيعة جسدانية، ولذلك نحتاج إلى المياه للاغتسال من الصورة الترابية لكي «نلبس المسيح» (غلاطية ٣: ٢٧)، وهكذا ينقلنا هذا التعبير «جسد المسيح» إلى ما نختبره في الأسرار الكنسية.

أريد هنا أن أركِّز الانتباه على الكنيسة جسد المسيح، فهي موضوع هذا الفصل. يقول الرسول بولس: «أمَّا أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١كو ١٢: ١٢) ولم يقل الرسول إننا مثل جسد المسيح أو نشبه جسد المسيح، بل «**أنتم جسد المسيح**». والعبرة هنا ليست في دقة اللفظ، بل في غاية الإيمان. لقد استلمنا من الآباء أن الإيمان هو الذي يشرح اللفظ، واللفظ يتحدد معناه بغاية وهدف المتكلم، أي غاية الخطاب. هذا ما نراه في طقوسنا وصلواتنا، أي الليتورجية حيث نصلي من أجل هذا الأمر، غاية الصلاة: «اجعلنا مستحقين

كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا؛ لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً». نحن نطلب هذه الوحدة، ونجعلها أحد أهداف وغاية التناول من جسد الرب ودمه، وبالتالي علينا أن نفكر في معنى ما نصلي لأجله؛ لأننا لا نستطيع أن نطلب شيئاً ثم ننكره، بل علينا إذا طلبنا شيئاً من الله أن نكون مستعدين له. ونحن بالتناول نصبح فعلاً جسداً واحداً، مع بعضنا البعض، بالمسيح.

التحول من الوجود الطبيعي إلى الوجود المسيحي

ليست الإفخارستيا طعاماً عادياً، نأكله ويتحول فينا إلى لحم وعظام على المستوى البيولوجي، لكي يطرد الجسم ما لا يقبله، أو لا تقوى أجهزة الهضم على امتصاصه. نحن نأكل عقلياً ومادياً جسد الرب ودمه، وهذا ما يقصده ربنا يسوع المسيح: «من يأكلني فهو يحيا بي». هذه ليست حياةً بيولوجية، وإنما حياة مسيحية؛ ولذلك يدعى الطعام خبز الحياة، طعام الخلود الذي يأكله يحيا إلى الأبد.

وتؤكد الليتورجيات الأرثوذكسية ذات كلمات المسيح: ''يعطى عنّا خلاصاً وحياةً أبديةً لمن يتناول منه''. فهذا هو صوت الرب نفسه كما سجَّله إنجيل يوحنا «الخبز الذي أنا أعطيه هو جسدي..». وأيضاً: «وأنا أقيمه في اليوم الأخير». نحن نأكل لكي نتحول إلى المسيح، وهذا عكس الأكل المادي الذي يختفي في داخلنا ويصبح طعاماً بائداً يقول عنه الرب: «يندفع إلى المخرج»، ولكننا نأكل ''خبز الغد'' أو ''الخبز الجوهري'' حسب ما جاء في الصلاة الربانية. نحن نأكل الحياة الغالبة الموت، ولذلك يقول القديس كيرلس عن طلبة الخبز في الصلاة الربانية: ''خبزٌ جوهري يقيت النفس''، وهذا ما جعل الترجمة القبطية تترجم النص اليوناني إلى ''خبز الغد''، وهو ذات التعبير الذي ورد عند العلامة أوريجينوس، والغد هو اليوم الثامن، يوم قيامة الرب. والخبز هنا هو خبز القيامة، خبز الحياة الذي يعطى لنا لكي نحيا إلى الأبد ولا

نذوق الموت، بل نقوم إلى الحياة الأبدية.

نحن نتحول إلى المسيح، وهذا ما تؤكده صلاة الاستعداد:

«أيها السيد الرب يسوع المسيح الشريك الذاتي وكلمة الآب غير الدنس والمساوي له مع الروح القدس أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. سبقت أن تجعل ذاتك حملاً بلا عيب عن حياة العالم».

وبعد طلب التقديس

«لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدس وهذا المزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم وليكون لنا جميعاً: ارتقاءً – شفاءً – خلاصاً».

نحن نرتقي، نرتفع إلى مستوى أعظم، تقول عنه صلاة قبل التناول:

«يا رئيس الحياة وملك الدهور .. الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء واهب الحياة لمن يتناوله .. ليصيرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء».

وفي صلاة أخرى:

«لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً معك».

فنحن نرتفع إلى مجد المسيح ونصبح واحداً معه وبه وفيه .. هو يصبح واحداً معنا، ولكن على مستوى الخلاص والحياة الأبدية، وليس على المستوى البيولوجي المادي، أي حسب الجسد، بل حسب الروح، ولذلك يقول القداس الكيرلسي:

«أملأ هذه الصعيدة التي لك يا رب بالبركة التي من قبلك بحلول روحك القدوس عليها. وبالبركة بارك، وبالتقديس قدس».

فإذا تنازل الابن إلى ذلك المستوى لكي يبارك ويقدس القرابين، التي

توصف بأنها ''قرابينك المكرمة''، فهذه لم تعُد طعاماً مائتاً بعد، بل كما تقول الطلبة:

«تجديداً للنفس والجسد وشركة في الحياة الأبدية وعدم الفساد وغفران الخطايا».

وعلينا أن نلاحظ هنا أن تعبير «عدم الفساد» مأخوذ من (١كو١٥: ٤٢، ٥٣، ٥٤)، حيث يتحدث الرسول عن القيامة وتحول الطبيعة الترابية التي فينا، والتي تقول صلاة الخضوع في القداس الكيرلسي عنها:

«يا الله الذي أحبنا هكذا وأنعم علينا برتبة البنوة لكي ندعى أبناء الله، ونحن وارثون لك يا الله الآب وشركاء في ميراث مسيحك .. طهِّر إنساننا الداخلي كطُهر ابنك الوحيد .. هذا الذي نريد أن نتناوله. فليهرب عنا الزنى وكل فكر نجس .. لكي نتطهر كاملين إذ نصير شركاء في الجسد، وشركاء في الشكل، وشركاء في خلافة مسيحك».

هذا التحول يجعل المسيح فينا على النحو الذي تعلنه صلاة القسمة:

«فليضيء علينا نور معرفتك الحقيقية لنضيء بشكلك المحيي».

وحقاً، إن ما نحتاج إليه هو المعرفة الأرثوذكسية التي نستطيع أن نلمس بها ذلك التحول في كياننا الذي يحدث فينا دون أن نراه بالعقل؛ لأن انشغال العقل بالأمور الأرضية والشرور تجعل عيوننا قاصرةً عن رؤية حالة التجلي التي نصل إليها عندما نتَّحد بهذه النار السماوية. ولذلك تقول صلاة القسمة:

«أنر عقولنا لنعاين سبحك، نق أفكارنا واخلطنا بمجدك .. أظهر في نفوس عبيدك مجد أسرارك الخفية .. عند نزول مجدك على أسرارك تُرفع عقولنا لمشاهدة جلالك. وعند استحالة الخبز والخمر إلى جسدك ودمك، تتحول

نفوسنا إلى مشاركة مجدك، وتتحد نفوسنا بإلوهيتك ..
جدد حواسنا بقوتك .. أهلنا للاتحاد بك خفية .. وكما
أنك واحد مع أبيك وروحك القدوس، نتحد نحن بك
وأنت فينا، ويكمل قولك ويكون الجميع واحداً فينا».

فماذا يمكن أن نقول أكثر من ذلك عن هذا التحول العجيب والمجيد الذي يحدث فينا وينقلنا إلى المسيح؟

نحن نتحول إليه في الإفخارستيا، نتحول بقوة الصليب، بالقوة التي جعلت الرب يقبل بذل ذاته، هذه القوة تحولنا إلى ذات البذل، لنبدأ بشكل صغير بالبحث عن خدمة احتياجات الآخرين عن محبة، وعن رغبة في حياة تُصلَب بالمحبة .. فالتحول الذي نأخذه كاملاً في الطبيعة يجب أن يلازمه تحول فكري، بخلع الإنسان القديم فكرياً، بكل ما فيه من قيم وأفكار وتصرفات لا تخدم ذلك الاتحاد العجيب بالمسيح.

نحن نأكله لكي نتحول إليه، وهو يحوِّلنا بالصليب، وبالقيامة، وبمسحة الروح القدس التي نشترك فيها به.

والتحول في الليتورجية وعند الآباء يُعلن لنا على هذا المستوى:

أولاً: تحول في الطبيعة الإنسانية في المسيح من طبيعة تقبل الألم والموت، إلى طبيعة مجيدة، بلا ألم، بلا موت، بلا فساد، لها مجد اللاهوت.

ثانياً: تحول في علاقة الثالوث بالإنسانية بسبب التحول الذي حدث في المسيح، فقد دخلنا مع المسيح ومع الروح القدس إلى حضن الآب.

ثالثاً: هذا التحول يتممه فينا المسيح في سر المعمودية، الذي فيه نصبح آنيةً جديدةً، وحملاناً في قطيع المسيح، وبخوراً، وذبيحةً وتقدمةً حيةً روحانيةً. كل هذه الكلمات تقال عنّا في صلوات الليتورجية؛ لكي ندرك حقيقة حياتنا الإنسانية الجديدة، ولكي تكون صورتنا الجديدة مأخوذةً من إعلان يسوع المسيح.

مرتكزات التحول من الوجود الطبيعي إلى الوجود المسيحي

تظهر حقيقة هذا التحول في صلاة المعمودية عندما تقول الصلاة:

«انقلهم، أبدلهم .. لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد،

بل أبناء الحق، أي إخوة للمسيح الذي هو الحق».

وخلف هذه العبارة الموجزة جداً، نجد التعليم اللاهوتي الذي عبَّر عنه الآباء بوضوحٍ كافٍ، وهو ذات التعليم الرسولي الذي يظهر في ما يأتي:

أولاً: آدم الجديد

أقام الآب جذراً جديداً، أو أصلاً جديداً للجنس البشري هو الكلمة المتجسد، أو آدم الأخير، أو آدم الثاني. هذا التحول جاء بواسطة التجسد. ويجب أن يكون واضحاً تماماً أن جسد المسيح ليس جسداً بيولوجياً مثل سائر الأجساد الآدمية، هو جسد حقيقي وبشر كامل فعلاً، ولكنه لا يعمل في وسطنا عملاً بيولوجياً؛ لأننا نولد من المسيح وبه بالروح القدس، أي بذات الروح الذي كوَّن جسده، ومسحه في الأردن. نحن لا نولد حسب الجسد. هذا هو التحول، وهذا هو الإنتقال من حسب الجسد إلى حسب الروح، حسب عبارة إنجيل يوحنا: «ليس من لحم ودم، ولا بإرادة رجل ولا بمشيئة إنسان، بل من الله».

لقد جاء التجسد بأعظم تحول في علاقة الله بالإنسان، وفي هذا يقول القديس أثناسيوس «**إن طبيعة اللاهوت ليست طبيعة عقيمة، بل طبيعة خصبة، فقد ولدت أزلياً الابن الكلمة، ومنها أيضاً ينبثق الروح القدس**» (المقالة الأولى ضد الأريوسيين). ويصف رسول المسيح هذه الطبيعة الخصبة، بأسلوب وكلمات العهد القديم بأنها «أورشليم العليا» (غلاطية٤: ٢٦) التي لم يكن منها أولاد، أي السماء، أي الله حسب التعليم اليهودي القديم، لكن الله لا يمكن أن يكون عاقراً، بل خصباً قادراً على الولادة، وإذا كان قد ولد

الابن أزلياً، فهو أيضاً يخصب الطبيعة المخلوقة، ولذلك السبب يقول القديس بطرس إن الكلمة هي «زرع الله» *Sperma* باليونانية (١بطرس١: ٢٣)، الزرع الذي لا يفنى. فاللاهوت ينبوع خصب، ليس جافاً، ليس مثل الينبوع الجاف حسب عبارة أثناسيوس، بل هو الينبوع الذي يفيض ماءً، ولذلك جاء التجسد وفتح رحم الله، وجعل اللاهوت يلد، ليس ولادةً جسدانية، بل ولادة روحية، يلد في الزمان بعد أن ولد أزلياً. أثمر ولادة الابن أزلياً، والآن يثمر ولادة البشر في الزمان، هذه هي الولادة من فوق، وكما ذكرت سابقاً، الولادة الجديدة، في المعمودية في عطية سر التبني. **ولما وُلِدَ الربُ بالجسد من الروح القدس، صار ميلادنا من الروح القدس على مثال ولادته** .. وهي تلك الحقيقة التي تدور حولها أناشيد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

لقد كانت ولادة الأمهات — البيولوجية – تفتح باب القبر، ولكن جاءت مريم لكي تلد مَن يُغلق باب القبر. فتحت حواء باب الموت، وجاءت مريم لكي تغلق باب الموت؛ لأنها ولدت الابن الذي جعل الولادة باباً يؤدي إلى الحياة.

نحن نعلم أننا لا نولد من مريم العذراء، ولكن من مياه المعمودية، فنحن لا نحتاج إلى امرأةٍ تلدنا؛ لأن الرب روحٌ بلا جسد، أمَّا نحن فجسدٌ بلا روح، ولذلك جاء هو إلى رحم البتول، أمَّا نحن فنجيء إلى رحم المعمودية، بشراً مائتين، لنا الطبيعة الإنسانية الميتة، المحتاجة إلى الحياة، ولذلك نولد كما وُلِدَ هو من الروح القدس بطبيعة آدم الجديد، وهكذا يصبح الفرق بيننا وبين المسيح ليس في الولادة، وإنما في الفرق بين الجذر والأغصان. لقد جاء الرب إلهاً متأنِّساً لكي يمنح ما أخذه ناسوته بالاتحاد، وبالصلب والقيامة.

ثانياً: الميلاد الجديد بالروح

حسب القانون الطبيعي، لنا أبٌ واحدٌ. «كما في آدم يموت الجميع». وقانون الموت هو قانونٌ لا يحتاج إلى شرح، ولكن ما يحتاج إلى إيضاح هو باقي العبارة: «في المسيح سيُحيا الجميع»، وهي بصيغة المبني للمجهول.

وحسب قانون المسيح، أي حسب الروح، نولد بزرع الله، بالكلمة التي تحول الفكر، وتجعل ولادتنا عقلية *Logismos* لوجاسية، أي حسب اللوغوس. ولادة ندركها ونحسها في الصلوات. وهنا يجب أن نتوقف عند قدرة كلمة الله، فهي أولاً: أقنوم الابن وثانياً: هي الكلمة المعطاة في التعليم. والابن الكلمة لا يحتاج إلى تعليق، لكن ''كلمات الله''، وهو تعبير لا يظهر في الكتاب المقدس، ودائماً بصيغة المفرد ''كلمة الله'' هو القوة العاقلة القوة اللوجاسية، أي حسب رسالة العبرانيين: ''كلمة قدرته''، فهي القدرة العاقلة أو ''القوة العاقلة'' حسب صلاة القديس ساويروس الإنطاكي. هذه هي التي تملك أن تغيِّر الإنسان، تغيِّر فكره، وهي أيضاً القوة الخالقة، التي يملكها اللوغوس الذي خلق كل الأشياء، ولذلك هي كلمة الله الحية الباقية إلى الأبد التي لا تفنى.

تعمل هذه القوة الخالقة بالروح القدس؛ لأنها تعطى بالروح، فهي القوة الخالقة التي تنال قوة الحياة من الروح القدس: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة»، فهو ليس نطقاً يُقال وينتهي، بل هو نطقٌ بالروح القدس الذي يُعطي الحياة. ولكن إذا كانت كلمة الحياة تدخل الحياة العقلية لكي تعطي رؤية واضحة لعمل الله، فهذه الرؤيا لا تقف عند مجرد المعاينة العقلية، بل لا بُد وأن ندرك أن الله ''روحٌ بسيط غير مركب''، وبالتالي، فكل ما في جوهر الله ليس طبيعةً إلهيةً عاريةً بلا مضمون وبلا حياة مثل طبيعة الذهب كما نجده في المنجم، إطلاقاً، إنها مثل طبيعة الذهب عند الصائغ، طبيعة الله طبيعة متأقنمة، كل شيء فيها على المستوى الشخصي أو الأقنومي، وبالتالي ما نعاينه ونراه، هو كائنٌ في ذات الله. ولذلك، الإعلان عن التبني بواسطة الكلمة التي نبشر بها، ليس إعلاناً عن فكرة، بل عن البنوة المتأقنمة في أقنوم الابن. وبالتالي، عندما نقوم بالبشارة بعطية التبني، فنحن ندعو إلى شركة في هذه العطية. نحن لا نتكلم، ثم ينتهي الكلام بقبول عقلي نظري، بل نتكلم لكي نأخذ بقبول عقلي قلبي، لكي تدخل كلمة الحياة في عقولنا وتقودنا إلى

تذوق واختبار ومعاينة البشارة بالإيمان. وهكذا قال الرسول: «الروح يشهد لأرواحنا أننا أبناء الله»، هذه شهادة الروح بالكلمة، ولكنها شهادة سكنى الروح فينا، وهو لا يشهد شهادة خارجية مثل شهادة الإنسان أمام القضاء؛ لأن الرسول يقول: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا صارخاً أبَّا أيها الآب».

إن قانون الولادة الجديدة هو قانون الروحي. وهو يبدأ من حيث ينتهي الإنسان، أي يبدأ بموضوع الموت. وحسب الروح يتحول الموت الذي فينا إلى بداية حياة؛ لأن المسيح قبل الموت وحوَّل الموت إلى بداية عندما يقول الرسول يوحنا: «في البدء كان الكلمة» فالبدء هو الرأس αρχη ورأس المسيح هو الله كما يقول الرسول، والمسيح هو رأس الكنيسة، ورأس المسيح هو الآب، الآب هو بدء الابن، البدء الأزلي، المصدر أو الينبوع. هكذا أخذ المسيح نهاية الإنسان، أي الموت وجاء به إلى البدء إلى الرأس وصارت النهاية، أي نهاية الحياة في المسيح قيامة، تحوَّلت النهاية أي الموت إلى بداية. نحن نجوز موت المسيح لكي لا نجوز موت آدم. ونقل المسيح الموت من ظاهرة بيولوجية إلى قوة روحية تحول الموت بقوة الصليب والقيامة إلى حياة جديدة. كيف حدث ذلك؟ الجواب هو بقبول الموت فكرياً وعقلياً وإرادياً، ولكن مع المسيح. يبدأ التحول من الهروب من الموت بقوة الإرادة، إلى قبول الموت بقوة المسيح، بقوة الروح القدس، ويتحول الدفاع عن الحياة بسبب الموت، إلى تضحية وبذل، هذه ليست عملية نفسية عقلية، وإنما هي عمل النعمة، ولذلك يقول الرسول عن الطبيعة القديمة الميتة، وهي الطبيعة الوحيدة التي نعرفها معرفة جيدة حسب العقل والإدراك: «لسنا نريد أن نخلعها» (٢كو ٥: ٤)، بل يريد العقل أن «يلبس فوقها لكي يُبتلع المائت من الحياة»؛ لكي تتحول الطبيعة المائتة، وحسب كلمات الرسول: «ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً عربون الروح» (٢كو ٥: ٥)، نحن لا نزال نئن؛ لأن الميِّت الذي فينا هو طبعنا ولا يوجد آخر غيره، هذا يريد أن يأخذ الحياة فوق الموت أي يضاعف وجوده ويصبح له وجودين، وجود حسب

الموت، ووجود حسب الحياة، وهذا هو مصدر الأنين فينا. نريد الاثنين معاً في وقت واحد، ولكننا نعلم أن هذا مستحيل، لابد وأن يحسم الصليب هذا العراك، يترك الإنسان القديم لكي يُبتَلَع بقوة الروح القدس الذي أخذناه هنا كعربون؛ لأن كمال عمل الروح القدس سوف يعلن فينا يوم القيامة.

يتحول الموت إلى بداية، إلى اكتشاف أصل الحياة الجديدة في المسيح ونعود إلى ذلك الجذر مثل الأغصان في الكرمة أو الزيتونة البرية التي طُعِّمَت في الزيتونة الجديدة. هذه كلمات تؤكد الصلة الكيانية التي لا يمكن أن نعبِّر عنها إلاَّ باستعارات *Metaphors* ولكن هذه الاستعارات خاصة بما يعرف باسم *Metamorphosis* التحول؛ لأن ما يحدث على المستوى الروحي الإلهي هو أقوى بكثير مما يحدث على المستوى المادي، ويفوق الولادة البيولوجية.

كانت مشكلة أريوس مع الثالوث أنه طبَّق ما هو حسب الجسد على ما هو حسب الروح. ولذلك جاء بالمقولة المشهورة، الولادة من الآب، أي ولادة الابن الأزلية تعني الانفصال، والشهوة والانقسام في الجوهر. حقاً هذا صحيح، ولكن على المستوى البيولوجي؛ لأن كل مولود ينفصل من الأب والأم، ويحيا حياة مستقلة «من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه يلتصق بامرأته»، ولكن حسب الروح حيث لا يوجد "لحم ودم، زواج، أو إرادة بشر، أو طبيعة مخلوقة". هنا يجب أن ننتبه إلى تعبير الرسول: «غير المصنوع بيد»، وهو تعبير خاص بختان المسيح أي بالمعمودية. نحن لا ننال الولادة الجديدة المصنوعة بيد أي مثل ختان اليهود حيث يتم الانفصال بين الإنسان وغرلته، وإنما ننال الميلاد الجديد الذي نُغرس فيه في الزيتونة الجديدة. نُغرس، نُدفن، نلبس، نموت، نُصلب، نقوم، أو بعبارة واحدة، نصبح في المسيح. نحن نموت في المسيح، وبالمسيح، وهذا الموت هو عطية الله لنا، وهو ما يقوله الرسول: «أن تخلعوا الإنسان القديم الفاسد بشهوات وغرور»، فالانفصال يتم على مستوى الإنسان القديم، ولذلك يأتي النسك السلبي *Negative* بما يجب أن نتركه عن استحسان وليس عن قهر، بما يدخل تحت بند «كل الأشياء

تحل لي، ولكن ليست كل الأشياء توافق». لا يمكن أن نخلع الطبيعة القديمة إلاَّ بشكل سلبي، إنها مثل التخلص من ملابسنا الداخلية المتسخة. ولكن لو توقفت التوبة عند هذا المستوى؛ نصبح عراةً بلا هوية، بلا إنسانية. نريد أن نترك الطبيعة القديمة من أجل الجديدة. ولكن إذا تركنا القديمة و لم نلبس الجديدة تحولنا إلى شبه بشر *Sub human*. إن قانون الموت الجديد هو اتحادٌ بالمسيح، هكذا تحولت النهاية إلى بداية. وبعد أن نلبس الجديد الذي هو من الله، غير المصنوع بيد أو حسب تعبير آخر ''ليس من هذه الخليقة''، فقد ماتت هذه الخليقة على الصليب، وجاءت خليقة جديدة لا تموت، ليست من عناصر الأرض، بل عناصر الأرض التي تحولت إلى طبيعة جديدة هي طبيعة المسيح الحي (لوقا ٢٤: ٢٤ – لاحظ أن تعبير ''الحي'' هو أحد أسماء اللاهوت في العهد القديم، فالله وحده هو الذي يوصف بأنه ''حيٌ'').

نحن نموت في المسيح لكي نولد. ولا فرق بين الموت والولادة؛ لأن النهاية أصبحت البداية. هنا يؤكد الإنجيل أننا بهذه الولادة أصبحنا أخوة كثيرين لربنا يسوع المسيح البكر.

أريد أن أقف هنا عند عبارة اعتراضية خطيرة تقول:

(إذا أردنا أن ننال من إلوهية المسيح، نُنزل مستوى الرب إلى مستوى البشر (الأريوسية) أو نرفع الإنسان إلى مستوى الابن (وحدة الوجود).

علينا أن نلاحظ أن التعليم الرسولي ليس خياراً بين شرَّين، ولكن التجسد هو تنازل الابن إلينا، فهل حقاً نزل الرب إلينا، إلى مستوانا؟ أليست هذه هي كلمات قانون الإيمان: «**نزل من السماء وتجسد**»، ثم أليست هذه هي أيضاً كلمات قانون الإيمان: «**صعد إلى السماء**»، أي صعد بناسوت آدم.

ما هو المقصود من هذه العبارة الاعتراضية؟

أكاد ألمح فيها إنكار الطبيعتين في المسيح الواحد؛ لأن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح يعني حقاً أن اللاهوت تحوَّل إلى كائن مخلوق، ويعني

أننا فعلاً جعلنا طبيعة الكائن الأزلي طبيعةً مخلوقةً عندما نزل إلى مستوانا. ولكن المسيح واحدٌ من طبيعتين حسب عبارة القديس كيرلس، وحسب الليتورجية واحد من اثنين, وبالتالي التنازل حدث عندما أخذ القدوس والبار الطبيعة الإنسانية. وتنازُل المسيح إلى مستوانا جعل المسيح يرتفع مرةً ثانيةً إلى مستواه الأزلي، إلى ذات المجد الذي كان له قبل خلق العالم.

تقول الترجمة العربية القديمة لنص فيلبي ٢: ٥-١٠: «لا تفعلوا كل شيء بالمراء أو بالمدحة الباطلة، لكن بتواضع الرأي يحب كلُ امرئ صاحبه كأنه أفضل منه. ولا يهتم الإنسان بنفسه، لكن يهتم كل أحد بصاحبه أيضاً. وهذه رووا في أنفسكم، تلك التي رواها أيضاً يسوع المسيح، ذلك الذي إذا هو شبه الله، لم يُعد هذه خُلسة أنه عدل الله، بل عطَّل نفسه، وأخذ شبه العبد. وصار في شبه البشر»[١٧].

قانون الموت الآدمي هو النفاق، المديح الباطل، تفضيل الذات على الآخرين. هذه هي قصة آدم وقصة الحضارة الإنسانية. ولذلك «رووا»، أي قولوها كرواية، الرواية التي رواها أيضاً يسوع المسيح. الرواية التي تُعطى في الليتورجية والتي تُرجمت إلى نص طويل جميل له إيقاع شعري ولاهوتي فخم في القداس الغريغوري. لقد «عطَّل نفسه»، أي جعل لاهوته لا يعمل بالقوة التي تسعى وراء المديح بالفاعلية التي تعود عليه بالمجد الذاتي أو المديح الباطل. فالموت يدفعنا إلى طلب المزيد، إلى التطرف في طلب الأشياء؛ لأن الموت لا يعرف الاعتدال، حتى في الغضب والكراهية، لا نجد للموت الذي يحركها أي اعتدال، بل جنوحٌ عارمٌ نحو القسوة ونحو التدمير.

هكذا جاء الصلب لكي يكشف لنا عن موت كل هذه القوى السلبية. وهذا هو تنازل المسيح إلى مستوى الإنسان، لقد جاء لكي يجعلنا أبناء للآب، ويعطي لنا حسب صلاة الكنيسة «هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له». وقد تمت هذه المبادلة في التجسد والصلب والقيامة. تقول الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية:

(17) H. Staal, MT. Sinai Arabic Codex 151 Arabic Text, 1985. p 150-151.

«المسيح بتجسده ألَّهني. المسيح بتواضعه رفعني، المسيح
المانح الحياة جعلته بتألمه بالجسد الطبيعي، مترهاً عن
الآلام».

«أنك بتسميرك على الصليب كإنسان وأنت إله.
أيها المسيح ألَّهت طبيعة البشر.
وبصيرورتك لعنةً، منحت العالم البركة وعظيم الرحمة».

هذا يتم بالتعليم أولاً.

«لقد صرت وسيطاً بين الله والناس أيها المسيح الإله،
وإننا بك أيها السيد، انتقلنا من ليل الجهل،
وتقربنا من أبيك مبدأ النور ومصدره».

وتجديد الطبيعة تقول عنه صلاة أخرى:

«أنك طلباً لصورتك المطمورة في الأهواء،
أيها المسيح تجسدت من العذراء».

وهكذا تم هذا التحول:

«بما أنك الحياة ذات الأقنوم، أيها المسيح الإله
لبستني بحنوك أنا البالي،
وانحدرت حتى تراب الموت أيها السيد،
وأقمتني بعد ثلاثة أيام مسربلاً الأموات بعدم البلى».

وعلى الصليب كما تقول صلاة أخرى:

«لقد غُرِسَ الصليب في الجلجثة،
فأزهر مثمراً عدم الموت بسيل ينبوعٍ دائم الفيضان
هو جنب المخلص».

أليس هذا هو ما تعبِّر عنه الممارسة الليتورجية في دورة الصليب حين يزيَّن الصليب بالأزهار والورود والرياحين .. وتقول صلاة القسمة القبطية:

«مزجت لنا كأساً من كرمة حقيقية،
التي هي جنبك الإلهي غير الدنس،
هذا الذي بعد أن أسلمت الروح،
فاض لنا منه دم وماء، هذان الصائران طهراً لكل العالم»
«أنك بصليبك يا يسوع زلزلت أُسس الأرض،
وبطعنك بحربة أنبعت قطرات الخلود، الدم والماء،
الذين طهَّرت بهما الجنس البشري من الآلام»
«بتسميرك على الصليب طوعاً يا رؤوف،
ألَّهت عنصر طبيعتنا الذي فسد».

لقد نزل المسيح إلى مستوانا، لكي يرفعنا إلى مستواه، وبالنعمة نصل إلى ذات المجد، لذلك يقول المسيح في سفر الرؤيا: «مَن يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ ٣: ٢١). عرشٌ واحدٌ للآب والابن، تجلس عليه كل الكنيسة؛ لأنه حسب كلمات الرسول بولس سوف نصبح «وارثون لله، وارثون المسيح». وماذا سوف نرث إلاَّ ذلك العرش الإلهي الذي نطلبه دائماً: «اطلبوا ما فوق حيث المسيح».

ولعل كنيستنا الأرثوذكسية القبطية تؤكد هذه الحقيقة بصلوات البصخة: ''لك القوة والمجد والبركة والعزة ..''. ومهما قيل من تفاسير، فإن كل هذه الكلمات خاصة بلاهوت الابن والآب والروح؛ لأن القوة والمجد والبركة والعزة، ليست صفات الطبيعة المخلوقة حسب أبسط حقائق الإيمان. وهكذا ننال قوة المصلوب، مجد المصلوب رب المجد، وبركة المصلوب. ولاحظوا أن عزة المصلوب هي التي تقول عنها الليتورجية ''أبطل عزة الموت'' بعزَّته.

إذا كانت عبارات المجد والقوة والشركة في الطبيعة الإلهية تثير اعتراضات عند البعض، يبقى لنا أن نسأل: وماذا عن المحبة الإلهية:

«محبة الله انسكبت في قلوبنا بالروح القدس» (رو ٥: ٥).

«محبة المسيح» (رو ٨: ٣٥).

«محبة الله التي في المسيح يسوع» (رو٨: ٣٩).

«لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة» (أفسس١: ٤).

«الله الذي هو غني في الرحمة من اجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالذنوب والخطايا، أحيانا مع المسيح» (أفسس٢: ٤، ٥).

وأخيراً يقول الرسول «سلام على الأخوة، ومحبة بإيمان من الله الآب والرب يسوع المسيح. النعمة مع جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح في عدم فساد» (أفسس٦: ٢٣-٢٤).

المحبة التي قال عنها ربنا يسوع المسيح: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم» (يوحنا١٧: ٢٦). هل يمكن أن نحوِّل طبيعة الله، الثالوث، إلى طبيعة مركبة تنفصل فيها المحبة عن اللاهوت، وتنقسم فيها المحبة إلى مستويات وأنواع؟ .. وإذا كانت المحبة تُقسِّم وتفصل، فما الذي يجمع ويوحِّد؟ في كل صلاة من صلواتنا لدينا ذكصولوجية لا تُقال جهراً - لأنه قديماً كانت هذه الصلوات تقال سراً، بسبب وجود الموعوظين - والآن أهملنا هذه الذكصولوجية:

> «بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لابنك الوحيد الجنس، ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، هذا الذي من قبله المجد والكرامة والعزة والسجود، تليق بك معه ومع الروح القدس المساوي لك».

هل يمكن ونحن نقدم المجد والكرامة والعزة والسجود للآب بالابن مع الروح القدس .. هل يمكن أن نقول إننا إزاء نوع من العزوم الميكانيكي: حركة تنازل للابن تجعله مخلوقاً، وحركة صعود للإنسان تجعله إلهاً؟ .. أم أن الحركة هي حركة محبة البشر ونعمة وسجود يقدَّم للثالوث بالابن في الروح القدس؟

ثالثاً: الابن الوحيد الجنس

هذه عبارة ذات دلالة عند آباء الإسكندرية، وهي تؤكد أن الابن هو وحده المولود من ذات جوهر الآب، ودخلت الليتورجيات الأرثوذكسية، وصارت أهم ما يُقال عن ربنا يسوع في الليتورجية القبطية. فما هو المقصود بهذه العبارة؟

الابن مولودٌ أزلياً من الآب، ومولودٌ زمانياً من العذراء. هذا الميلاد الأزلي غير الـــمُدرَك والذي يفوق قدرات العقل، أُعلن في الجسد، فقد وُلِد الابن من العذراء بدون أب جسداني، فهو بلا أب حسب الجسد، وبلا أم حسب اللاهوت. جاء إلينا بهذه الصفة، روحياً وإلهياً مولودٌ من الآب، وروحياً وإلهياً مولودٌ من العذراء، وفي كلتا الحالتين هو الابن الوحيد للآب. وهكذا نولد نحن حسب الروح بلا أب جسداني، أي على مثال ولادته من القديسة مريم، نولد نحن من الروح القدس. هذه الولادة لها اسم آخر ''الخليقة الجديدة''. وهي عطية من فوق، ليست من هذه الخليقة، ومع ذلك توصف بأنها خليقة جديدة، لأنها طبيعة لم تكن معروفة من قبل، ولا هي كائنة قبل تجسد الابن، وهي ذات طبيعة الرأس أي المسيح، الذي هو رأس الجسد، رأس الكنيسة.

هكذا حسب المثال الجديد تصبح الكنيسة عروساً متحدة بالعريس، واحداً معه، تنال هذه الحياة الجديدة من الروح القدس. هنا تُعد وساطة الإنسان يسوع المسيح حسب تعبير الرسول بولس: «إله واحد ووسيط واحد الإنسان يسوع المسيح» (١تيمو ٢: ٥)، ذات دلالة هامة. فقد جاء الميلاد البتولي بعنصرٍ جديد، وهو اجتماع الروح القدس مع الأحشاء البتولية، لكي يولد إنسان ليس له أب، لم يولد من زرع بشر، بل من الروح القدس، وسبق الإعلان الإلهي، فقدم لنا اثنين من البشر هما اسحق ويوحنا المعمدان كمثال لهذه الولادة. ولكن الجديد هنا هو أن المولود يعطي لنا شركة في ميلاده، بينما اسحق ويوحنا المعمدان لا يعطيان لنا هذه الشركة، بل صارت هذه الحياة قاصرة عليهما، وانتهت بالموت.

الميلاد والقيامة معاً، حدثا بالروح القدس روح الحياة. في الميلاد جُبِلَ الكائن الجديد، وفي القيامة تألَّه وصار بلا فساد وبلا ألم، وغالباً لأوجاع الموت حسب تعبير القديس بطرس. هذا التحول في طبيعة الإنسان خاصٌ بالمسيح كوحيد الجنس، ونحن لا ننال هذا الاسم؛ لأننا لم نولد أزلياً من الآب، نحن أولاد الله، والفرق بين الوحيد الجنس، وأولاد الله، ليس فرقاً في الاسم فقط، ولا في الأزلية وحدها، ولا لأن المسيح هو الجذر ونحن الأغصان، وإنما لأن الابن الوحيد الجنس هو الإله المتجسد. نحن بشر ننال صفات اللاهوت، نوصف في كلمات الوحي نفسه باسم ''آلهة''، ولكن يبقى الفرق الكبير بين من هو إلهٌ بالطبيعة، وإلهٌ بالنعمة، ويمكننا أن نوجز بعض ملامح هذا الفرق على النحو التالي:

١– المسيح هو إلهٌ متجسد. هو أقنوم متجسد، إرادته وفكره، وحياته، وكل صفاته هي صفات الآب والروح القدس، ونحن لا نشترك في هذه الصفات إلاَّ بالقدر الذي اشترك فيه الناسوت، أي آدم الثاني. هذا القدر يؤكده القديس بولس في (١ كو ١٥: ٤٥) حيث يضع صفات المجد والقوة، عدم الفساد كصفات للطبيعة القائمة من بين الأموات وهي صفات إلهية، وُهِبَت لناسوت الابن بواسطة الاتحاد، وتحققه وأُعلنت بالصلب وبالقيامة.

٢– الابن مولود من ذات جوهر الآب، فهو أقنوم أزلي، وعندما وُلِد في الزمان، أضاف العنصر الآدمي الزماني إلى أقنومه الإلهي الأزلي، وبالتالي تصبح النعمة التي تُعطى لنا في المسيح، نعمة تنقل الحياة من مصدر وجودها الأصلي، أي العدم، إلى مصدر الحياة وكل حياة أي اللاهوت، دون أن تفقد هذه الحياة طبعها الإنساني، وهذا عائدٌ إلى المحبة الإلهية. فقد أحبنا المسيح كبشر، وهو «محب البشر»، ولو ضاع العنصر البشري فينا؛ لضاعت محبة البشر، وتحولت إلى شيء آخر. ولكن بقاء الطبيعة الإنسانية الآتية من العدم، كطبيعة مخلوقة، هو بقاء المحبة الإلهية التي تجعل الخليقة متألهة ومخلوقة في نفس الوقت. لا تفقد كيانها الآتي من العدم، وفي نفس الوقت تنال الحياة التي ليست من العدم، بل

الدائمة التي لا تموت، المترهة عن الموت.

هذا ما تؤكده عبارات الاتحاد بين اللاهوت والناسوت. فعبارة «بغير اختلاط» تعني أنه من ناحية الأصل، يظل ما هو إنساني كما هو. وعبارة «بغير امتزاج» تعني ألاَّ تحل طبيعة محل الأخرى، وعبارة «ولا تغيير»، أي لا يفقد اللاهوت ولا الناسوت خصائصه وصفاته، فما هو غاية الاتحاد؟

والجواب هو إن نصبح مثل يسوع الإنسان المتمايز عن الوحيد الجنس. وهنا يجب أن ننتبه إلى الحقيقة الأساسية، وهي أننا حسب كلمات الرسول بولس: «أفراداً»، وهذا يعني أننا لنا طبيعة واحدة هي طبيعة جسد المسيح أو ناسوت الرب، ولكن اشتراكنا فيها لا يجعلنا كلٌ مثل الآخر تماماً، بل توجد العين، والأذن، والقدمين، والكلام هنا عن تنوُّع الأعضاء، وهو تنوُّع مرجعه حسب كلمات الرسول، المواهب المختلفة التي تعطى لواحدٍ دونً الآخر، ولكنها تعطى للجسد الواحد. ولذلك يقول الرسول إن الجسد كله له طبيعة واحدة، هي عدم الفساد، الحياة الأبدية، التبني، المجد، أي الصفات العامة التي نالها كل واحدٍ منّا، ولكن لكل واحد يضاف موهبة أخرى، وخدمة مختلفة. هذا لا ينطبق على المسيح؛ لأن الكنيسة كلها هي ملء القامة، أي قامة المسيح. وهذا عجيبٌ حقاً؛ لأن الجماعة هنا عبر التاريخ تصل في النهاية معاً وكلها إلى جمال وقوة ومجد الرأس.

٣– ويجب أن نلاحظ على الفور أن الطبيعة الواحدة لناسوت المسيح لا تنقسم ولا تتعدد ولا تتنوع، وإنما الذي يتنوع ويتعدد هم الأعضاء، وتنوع الأعضاء يجعل الوحدة ضرورية لبقاء الأعضاء كأعضاء، فهذه هي حالة الوجود حسب النعمة، وهو وجودٌ مشروط، لا يمكن أن يتطابق مع الوجود حسب الأبدية أو حسب اللاهوت؛ لان وحدة جوهر الثالوث، ليست مثل وحدة طبيعة الجسد الواحد الكنيسة، فتلك وحدةٌ طبيعية، أمَّا هذه، فهي وحدة تُخلق بالنعمة، وتبقى بالنعمة، ولا تتحول لتصبح مثل جوهر الله؛ لأن هذا التحول يعني نهاية محبة الله للبشر كبشر.

وظائف ناسوت المسيح حسب التدبير

يقول الرسول بولس: «نحن لا نعرف المسيح حسب الجسد»، أي لا نعرفه كظاهرة بيولوجية، ولادة جسدانية، موت جسداني فقط، بل الرب المتجسد. عاش ربنا حياةً إنسانيةً كاملةً بلا خطية، ولكن ما فعله بالجسد لم يكن من طبيعة الجسد البيولوجية؛ لأن الجسد أو الإنسان لا يقيم الموتى، ولا يُعطى طعاماً للخلود، ولكنه خدم احتياجات الإنسان.

ليس لدينا في اللاهوت الشرقي، وهذا ما تؤكده الليتورجية، قيام الرب يسوع بخدمة احتاجها الله، بل خدمة احتاجها الإنسان. كانت خدمته بتدبير الآب وحسب مسرته، ولكنه لم يكن يخدم احتياجات الآب، بل كان يجمع في كيانه الإلهي وظيفة: الكاهن والمقدِّم، وكان هو الذبيحة. وعندما تجتمع هذه العناصر الثلاثة معاً، فإننا نرى على الفور ما تؤكده الليتورجية: الذبيحة والكاهن هو المسيح، والكنيسة هي التي تقدم للمسيح والآب والروح القدس. والتقدمة حسب نصوص كل الصلوات، خاصة بما تحتاجه الإنسانية، وما أسَّسه المسيح. لا يوجد لدينا نصٌ واحدٌ عن احتياج للآب، أو احتياجٍ للروح القدس. وتؤكد الليتورجيات الأرثوذكسية جميعاً أن العداوة كانت من جانب الإنسان، ولم تكن من جانب الله. والتعبيرات الليتورجية عن ذبيحة المسيح هي:

- ذبيحة اسحق
- حمل الفصح

لا تأخذ الليتورجية بالمرة بما جاء في سفري اللاويين والتثنية، فليس لدينا أي نص من القداسات الشرقية والغربية يربط بين ذبيحة الإثم أو ذبيحة الخطية، أو غيرها من الذبائح في العهد القديم ما عدا ذبيحة اسحق وحمل الفصح. لم يكن في هذه الذبائح أي عنصر يمكن استخدامه في العبادة المسيحية. وكل ما عندنا من سفري اللاويين والتثنية هو: الفداء بمعنى التطهير، وهي كلمة ترد على الأقل ٣٥ مرة في القداس الباسيلي. فإذا كان الرب يسوع جاء ككاهن،

فإن عدم احتياج الله تؤكده صلاة القداس الغريغوري: ''لم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديتي بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك''. لم يخلق الله الإنسان لكي يخدمه الإنسان، هذا مبدأ غريب على تراثنا الشرقي. حسب كتاب المربي وعظات العلامة أوريجينوس، والكتاب المقدس نفسه، وتجسد الكلمة لأثناسيوس: خلق الإنسان لكي يتمتع بكيانه كصورة الله، ولكي يحيا كظل للكلمة، ويقول أوريجينوس: ''**هناك مخلوقات خُلِقَت من أجل مخلوقاتٍ أخرى مثل النباتات من أجل الحيوانات، والحيوانات من أجل خدمة الإنسان، أما الإنسان فهو لم يخلق لخدمة أي مخلوق آخر، ولم يخلق لخدمة الله، بل خلق من أجل ذاته، لكي يكون ويحقق في كيانه صورة الله ومثاله**» (شرح سفر المزامير مجلد ١٢: ١٠٨٩)، ولذلك يقول القداس الغريغوري: «**خلقتني إنسان كمحب للبشر**»، وهذا يضبط الإيقاع الروحي واللاهوتي الذي يعبِّر عنه القداس الغريغوري بكل دقة: «أقمت السماء لي سقفاً، ثبَّتَ لي الأرض لأمشي عليها. من أجلي ألجمت البحر، من أجلي أظهرت طبيعة الحيوان، أخضعت كل شيء تحت قدمي، لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك. كتبت في صورة سلطانك، ووضعت في موهبة النطق ..». هذا هو الكائن الذي خُلِقَ من أجل نفسه، ولذلك كانت خدمة المسيح من أجل تحقيق غاية الإنسان؛ لكي يفتح له باب الحياة بعد أن «اختطف لنفسه قضية الموت». جاء المسيح لكي يحول عقوبة الموت إلى خلاص، وكما رأينا يحول طبيعة الموت، «كراعٍ صالح سعى في طلب الضال».

لقد مات المسيح موتاً حقيقياً، وانفصلت نفسه عن جسده، وهذا ما تؤكِّده الليتورجية. نزلت نفسه إلى الجحيم، ووُضِعَ جسده في القبر، وهكذا صار في مملكة الموت بالنفس والجسد، وظل متحداً بهما، ودخل مملكة الموت كلها، فكسر قوة القبر، وأباد الهاوية وهزم فساد الجسد. و لم يكن موت المسيح موتاً بيولوجياً، بل قدَّم الرب ذاته على الصليب بالروح القدس (عب ٩: ١٣)، ويقول الرسول: «مُمَاتاً فِي الْجَسَدِ وَلكِنْ مُحْيىً فِي الرُّوحِ» (١بط ٣: ١٨).

ومات يسوع كمسيح الرب، الممسوح بالروح القدس، مات بالروح القدس، وهو ما يعني أنه قدم ذاته للآب بالمسحة التي نالها من الروح القدس، ولذلك قام من الأموات بنفس الروح، وحسب الترجمة القديمة: «استبان ابن الله بالقوة وبالروح القدس بقيامته من الأموات»[١٨].

وتعكس صلاة قسمة سبت الفرح التعليم الرسولي القديم: «يا يسوع المسيح ذا الاسم المخلص»، فقد دُعيَ المسيحُ؛ لأنه مُسِحَ بالروح القدس، «الذي بكثرة رحمته نزل إلى الجحيم وأبطل عز الموت، أنت هو ملك الدهور غير المائت الأبدي كلمة الله الذي على الكل»(قسمة سبت الفرح). ودخول المسيح حياً إلى قدس الأقداس ككاهن هو أحد موضوعات الرسالة إلى العبرانيين. فقد مات بالجسد، ولكنه دخل حاملاً دمه إلى قدس الأقداس؛ لان اللاهوت لا يموت، ولكي يقدم الدم، أي هبة الحياة للآب، تقدمة حياة لا موت. فالموت لا يقدَّم لله حسب نصوص العهد القديم كله. الذبائح تُذبح لكي تقدَّم الحياة أي الدم، ولذلك لا يرمز الدم للموت، بل للحياة. ومن هنا جاء إصرار الليتورجية على استخدام ذبيحة اسحق وخروف الفصح كأحد الرموز الأساسية في العهد القديم لموت الرب على الصليب. وتؤكد صلاة القسمة هذه الحقيقة: «فذبح اسحق كان إشارةً إلى سفك دم المسيح ابن الله على الصليب عن خلاص العالم. وكما حمل اسحق حطب المحرقة، كذلك حمل المسيح خشبة الصليب، وكما رجع اسحق حياً هكذا أيضاً قام المسيح حياً من الأموات».

الصليب علامة حياة والدم حياة. وهكذا تقول صلاة قسمة سبت الفرح: «الذي صعد إلى السموات، وصار فوق السموات، ودخل داخل الحجاب، موضع قدس الأقداس الموضع الذي لا يدخل إليه ذو طبيعة بشرية».

كان نزول الرب إلى الجحيم بالنفس، والجسد في القبر، ولكن اللاهوت حمل تقدمة الحياة إلى عرش الآب. هذا البعد السماوي نراه بوفرة عند آباء

(18) H. Staal, MT. Sinai Arabic Codex 151 Arabic Text, 1985.

الإسكندرية لا سيما العلامة أوريجينوس، والقديس أثناسيوس الرسولي.

وعند الآباء، الصلب والقيامة والصعود، هما ثلاثة أعمال هامة في تقديس الطريق إلى قدس الأقداس. مات الرب لكي يدخل بتقدمة الدم إلى السماء، وقام حياً لكي يجعل هذه التقدمة أبدية، وصعد لكي يملك كشفيع في الكنيسة، يشفع فينا كملك، ولا يوجد في تراثنا الليتورجي ذلك التمييز في الحديث بين شفاعة كفارية وشفاعة توسلية. فنحن نقدم صلواتنا باسم المسيح وفي المسيح، وتوسلات الكنيسة بكل أنواعها تُقدَّم باسم رئيس الكهنة والرأس، والتوسل، إنما يكتسب قوته من موت المسيح.

ويقول القديس باسيليوس: «قيل عن الروح إنه يشفع فينا» (رو٨: ٢٦ – ٢٧)، ونستنتج من هذا أن الذي يشفع يسأل، وبالتالي فهو أقل من الذي يسمع الشفاعة ويعطي، وبالتالي فالروح أقل من الله في الكرامة. ولكن هل سمعت ما قيل عن الابن الوحيد إنه «على يمين الله الآب يشفع لنا» (رو٨: ٣٤)؟ إذاً لا نخطئ في فهم معاني الشفاعة؛ لأن الروح القدس فيك (إذا كان حقاً فيك) ولا تحسب أنه إذ يعلمنا نحن العميان ويقودنا إلى اختيار الأفضل، فإنه يصبح بذلك أقل من الله. لا تسمح لنفسك بسبب الفهم الخاطئ أن تفقد العقيدة الصحيحة المقدسة الخاصة بالروح القدس. لا تجعل من محبة من يُحسن إليك وتعطفه بوفرة، فرصة لإنكار الجميل؛ لأنه مكتوب: «لا تحزنوا الروح القدس» (أفسس٤: ٣٠)[١٩].

ولابد من وقفة هامة نؤكد فيها ما يلي:

١– يجب ألاَّ نفصل بين نوعين من الشفاعة، كأن واحدة منها تليق بالله، وهي الكفارية، والثانية تليق بالبشر، وهي التوسلية؛ لأن هذا الفصل تقسيمٌ للمسيح الواحد، الذي هو إلهٌ وإنسانٌ وربٌّ ورئيسُ كهنةٍ باسمه تقدَّم حتى الصلاة الربانية نفسها التي علَّمها هو لنا. وتقديم الصلاة باسمه هو جوهر الشفاعة دون أن نقسِّم الشفاعة إلى قسمين.

(١٩) الروح القدس – فصل ١٨: فقرة ٥٠ ص ١٧٢ – ترجمة د. جورج حبيب بباوي.

٢– يجب أن يستقر في وعي وضمير المصلي **أننا نصلي حياة المسيح**، تلك التي توضع في عبارة موجزة «أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره»، وهنا تصبح شفاعة الروح القدس كما يقول رسول المسيح: «الروح يُعين ضعفاتنا، لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها» (رو٨: ٢٦). وشفاعة الروح القدس، هي التي تدخلنا في سر المسيح، سر موته وقيامته وبشكل خاص آلامه، وسر الانتصار الذي يبدأ به الرسول كلامه عن شفاعة الروح القدس: «وإن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو٨: ٢٤)، وبعد ذلك يقول الرسول: «وكذلك الروح أيضاً يُعين ضعفاتنا»، فهو يعلم الضعف الذي فينا ويكشف لنا عن معنى انتظار المسيح القوي، الذي تألم بقوة المحبة، وهي المحبة التي تبدو ضعيفة، لا سيما للذين يتألمون.

وشفاعة الروح القدس، هي شفاعة إعلان وتعليم، حسب قول الرب نفسه: «يذكركم بكل ما قلته لكم»، وهي لا تأتي من الخارج، بل كما يقول القديس باسيليوس: «إذا كان الروح القدس فيك». فهي عمل داخلي، مثل عمل الابن وشفاعته «فالمسيح فينا بالروح القدس»، وهي عبارة مألوفة في كل كتب الآباء، وهي أيضاً خلاصة الصلوات الليتورجية، وإذا كان الابن فينا بالروح القدس، فإن فصل شفاعة الابن عن شفاعة الروح هو فصل لحقيقة الحضور والسكنى الواحدة للثالوث.

٣– ولكن ما هو دور التوسل في الأرثوذكسية؟ لأننا يجب أن نعود إلى روح الإنجيل: «أكبركم يكون خادماً لكم»؟ هذه هي قاعدة الصلاة وهي قاعدة هامة يجب أن نحرص عليها ضد التفسير الأريوسي للمسيحية، وضد الفهم الاجتماعي الطبقي الذي يصور الكبير والعظيم على أنه المرتفع العالي، البعيد جداً، الذي لا يتصل بأحد.

لقد ضرب المسيح مثالاً على شفاعته، وهو «غسل أرجل التلاميذ»، ولما

شاء بطرس أن يمتنع سمع حكماً صارماً: لا مكان للأقوياء والمتكبرين في وليمة الملكوت: «إن لم أغسلك فليس لك معي نصيب أو ليس لك فيَّ نصيب» (حسب الترجمة القديمة) ولماذا، لأن بطرس يريد إنجيل العظماء الذين لا يخدمون.

ومن مدرسة الصلاة في الكتاب المقدس، أي سفر المزامير، نعرف كيف يغسل الله خطايا القلب، ويجعل الخاطئ أكثر بياضاً من الثلج، بل يؤكد مزمور ١٤٧ حقيقة العظيم الخادم، والملك العبد الذي يقوم بكل أعمال العبيد، فهو «المعطي للبهائم طعامها ولفراخ الغربان التي تعرفه» (١٤٧: ٩)، بل يقوم بدور الأم والممرضة «يشفي المنكسري القلوب ويجبر كسرهم» (١٤٧: ٣)، فالله الخادم فكرة غير مألوفة عند الذين – من خلال منطق الشر والخطية – يتصورون أن الله مثلهم، لديه نزوع وميل لا يقاوم للقوة والقهر والاستعراض والقمع .. ولكن الله غير ذلك، فهو جبارٌ خادم، قويٌّ متواضع، ملكٌ عبد، وإلى آخره من الصفات التي تجعل الله يغسل دنس الإنسان ويلقي بعيداً بخطاياه. وهكذا لا يكون التوسل هو عن إنسان، بل التوسل هو إغراء الروح القدس وأنَّات المحبة، التي تسعى رغبةً في الصعب، وأن تطلب ما يبدو لنا في وسط الآلام والضيقات مستحيلاً.

ولا يجب أن نتصور إن التوسل هو إذلالٌ وانسحاق أمام الآب، يقوم به الابن مثل المصلِّين، ولكن التوسل هو إعلان عن الحاجة، وهو مشاركة في فرح السماء بتوبة واحد، وهو دعوة توبة لكل الخليقة المنظورة وغير المنظورة لأن تشترك في الطِّلبة، ليس لإله قاسٍ، بل لأن الشركة تجعل تحقيق الطلبة هو للكل، لله والملائكة، والكنيسة الجامعة.

٤– التوسل هو جزءٌ لا يمكن فصله عن صلاتين كلاهما تحمل التعليم عن طبيعة الكنيسة الجسد الواحد: **الأولى** هي صلاة تحليل الخدام، **والثانية** هي صلاة المجمع في القداس، يضاف إليها تسبيح المجمع الكبير في نصف الليل.

الصلاة الأولى هي صلاة غايتها الواضحة هي أننا شركاء في إيمان الآباء،

وأننا واحد مع الثالوث، والرسل، ومعلمي الإيمان.

والثانية هي تذكار يظهر فيه الاستعطاف المزدوج: من ناحيتنا نحن نتشفع بذبيحة الإفخارستيا، كأمر الابن الوحيد: «لأن هذا هو أمر ابنك الوحيد أن نشترك في تذكار القديسين، تفضل يا رب أن تذكر جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء»، وبالتالي التذكار هنا هو شركة متبادلة بين الله والكنيسة. والتذكار يحمل في لغة الليتورجية أولاً: الوصول إلى الغاية، أي نهاية السيرة. ثانياً: أن نطلب نحن أن نكون مع هؤلاء «هؤلاء الذين بسؤالاتهم وطلباتهم ارحمنا كلنا معاً وأنقذنا من اجل اسمك القدوس الذي دعي علينا». وهكذا بتذكار القديسين؛ نطلب من الله الرحمة لنا ولكل الكنيسة، ونطلب ذات المصير الواحد.

ولنا أن نتأمل في نداء الشماس: «القارئون فليقولوا أسماء آبائنا البطاركة القديسين الذين رقدوا. الرب ينيح نفوسهم أجمعين، ويغفر لنا خطايانا». وطبعاً من ضمن هذه الأسماء أثناسيوس وكيرلس وديوسقوروس وغيرهم من قديسي الكنيسة.

سمعت من أحد الذين عاصروا الأنبا ابرآم أسقف الفيوم أنه سُئل عن الشفاعة مرةً بواسطة شخص غير أرثوذكسي، فقال له: «يا ابني التوسل من أجل شيء، يُعلِّم الإنسان الرحمة». وهكذا، فإننا بالتوسل ندخل إلى أعماق الرحمة الإلهية.

والمسيح لا يتوسل كما نتوسل نحن، ولا يتذلل أمام الآب، وإنما يقدم توسلات الكنيسة، أي يعلنها للخليقة غير المنظورة كلها لكي تختم السماء على هذه الطلبة التي تجعل الخليقة الجديدة التي يرأسها رأسٌ واحد هو المسيح، واحدة تلمع بالوحدة، والمحبة وهي غاية تجديد الخليقة.

٥– ومن شعر الآباء السريان، وبشكل خاص مار إفرام، ومار يعقوب السروجي، نتعلم حقيقة شفاعة الملك العبد، والسيد الخادم، وهذه هي أسماء

الله الابن عند هؤلاء الشعراء، فالله يسجد للخليقة سجود المحبة، ذلك أن عبادة الخليقة لله لا تقابَل بصمت ورضى العظيم المتكبر، فهذه هي في الواقع صفات الشيطان، الذي يجد في الكبرياء غاية وجوده، ولكن الله الذي لا غاية ولا هدف له إلاَّ المحبة، فهي جوهره الفائق، يجد سعادةً وفرحاً لا يمكن أن نعبِّر عنه. في مغفرة الخطايا يقول عنه ميخا النبي: «مَن هو إلهٌ مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنوب .. لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسر بالرأفة. يعود يرحمنا يدوس آثامنا وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (٧: ١٨ – ١٩). وسرور الله بالرأفة والرحمة، بالشكل الذي يجعل الله يدوس الآثام أو كما تقول التسبحة: «**غُلِبَ من تحننه**»، ذلك الذي يجعل سعادة المحبة التي أعطت كل ما لديها وقدَّمت كل خيرات الملكوت، وعندما لم يجد ما يقدمه أكثر مما قدَّم، قدَّم جسده ودمه .. **أليس هذا تفوق سجود الله وعبادته على سجود وعبادة الخليقة؟**

الفصل الرابع

الجماعة المسيحية،
أو الكنيسة باعتبارها جسد المسيح

الكنيسة تصبح جسد المسيح في الإفخارستيا

لقد ميَّزنا بين العلامة والرمز[٢٠]، وصار من الضروري أن نتوقف عند الجسد الإنساني، وهو الوجود والحياة على المستوى الظاهر، أي المستوى المادي. وهكذا لا يمكن أن يكون الجسد إلاَّ رمزاً للجسد؛ لأن الجسد يأخذ معنى وغاية وجوده من الحياة الفكرية والعقلية التي يحياها الإنسان. ولكي نتأكد من ذلك علينا أن نقارن بين تعبير «أعمال الجسد» عند الرسول بولس، وهي كلها الجرائم والخطايا مثل القتل والزنى، ثم ثمار الروح، وهي «المحبة، الفرح، السلام، طول الأناة، اللطف، الصلاح، الإيمان، الوداعة، التعفف»(غلا ٥: ١٩ – ٢٣). وبالرغم من أن أعمال الجسد وثمار الروح كلاهما يظهران في الجسد، إلاَّ أن الفرق بين الاثنين، هو الفرق بين الطبيعة الإنسانية الساقطة، والطبيعة الإنسانية الجديدة في المسيح، والتي فيها يتجلى الجسد بثمار الروح القدس. وهكذا يمكن للجسد أن يكون رمزاً للجسد، أي الحياة الطبيعية المغتربة عن الله.

جاء المسيح لكي تتجلى في جسده المحبة، والقدرة الإلهية، ولذلك لم يكن المسيح إنساناً يحيا حسب الجسد؛ لأن هذا تعبيرٌ خاص بالخطية، وخاصٌ بالسلوك البيولوجي الطبيعي، وإنما جاء لكي يحيا حسب الله، وحسب الروح؛ لكي يجدد بحياته وموته وقيامته الطبيعة التي تحيا حسب الجسد.

والحياة «حسب الله بالروح» (١بطرس ٤: ٦) هي الحياة التي عاشها المسيح لأنه «مماتاً في الجسد ولكن محيًّ في الروح» (١بطرس ٣: ١٨). وإذا كان الجسد هو الذي حلَّ فيه كمال اللاهوت، لكي يحيا حسب اللاهوت، فقد تحوَّل الجسد من مصدر لأعمال الجسد التي أشرنا إليها، إلى مصدر

(٢٠) راجع ما جاء في هذه الدراسة تحت عنوان: المسيح حياتنا وعالم الرموز والقياس.

للحياة، ولذلك قال الرب: «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله عن حياة العالم» (يوحنا ٦: ٥١). وهنا يجب أن ننتبه إلى استعمال كلمة «خبز» .. ففي كل الليتورجيات الأرثوذكسية بعد التقديس واستدعاء الروح القدس لا تختفي كلمة «خبز» بالمرة، بل تظهر في كل الصلوات ويُضاف إليها «الحياة» ليصبح الاسم «خبز الحياة». ولعل أفضل ترتيلة تعكس هذا الترتيب القديم هو لحن «بي أويك» أي «خبز الحياة الذي نزل من السماء وهب الحياة للعالم»، وتؤكد الترتيلة أن بداية هذا الخبز هو السماء، ولكن «أنت يا مريم حملت في بطنك المن العقلي ⲛ̀ⲛⲟⲏ̀ⲧⲟⲛ الذي أتى من الآب''. ونحن نحتاج إلى وقت طويل للكلام عن العقل Ⲛ̀ⲛⲟⲩⲓⲧⲟⲩ من النوس، ولأننا أهملنا الجانب الروحي أو العقلي حسب الاستعمال القديم، تحول مفهوم الجسد عندنا إلى المعنى المادي .. ولذلك طرح بعضهم هذا السؤال: هل تأكل الكنيسة نفسها إذا كانت هي جسد المسيح؟ والسؤال مشروع وصحيح إذا كانت الإفخارستيا هي حسب الجسد، عندئذٍ يصبح القداس وليمة «آكلي لحوم البشر»، وهذا التعبير مأخوذ من القديس كيرلس[٢١] الذي يقول إن جسد الكلمة يهب الحياة لمن يأكله، وإنه ليس جسداً بشرياً أي ليس جسداً على المستوى البيولوجي، بل هو «المن العقلي» الذي لا يمكن أن نفهمه على المستوى البيولوجي. وهنا يجب أن نقدِّم ملاحظتين:

الأولى من الرسالة الخامسة إلى سرابيون عن التجديف على الروح القدس. وفيها يؤكد القديس أثناسيوس إن جسد الكلمة طعام لكل العالم، وهو بالتالي لا ينفذ ولا ينتهي.

الثانية من تفسير القديس كيرلس السكندري على إنجيل يوحنا، وهي عبارة معروفة في الطقس البيزنطي وتقول: «يوزَّع جسد المسيح الذي لا يُقسم، يؤكل ولا ينتهي، بل يقدِّس الذين يأخذوه».

ومن هاتين الملاحظتين ندرك أن «الخبز النازل من السماء الواهب الحياة

(٢١) راجع رسالة القديس كيرلس إلى نسطور رقم ١٧ فقرة ١٢.

للعالم» لا يقع ولا يدخل تحت المستوى البيولوجي حسب الجسد، بل «الحياة حسب الروح»، ولكن حسب الروح لا تعني شيئاً غامضاً مجهولاً. فقانون الحياة الروحية حسب اصطلاح القديس باسيليوس: «هو ثبات العالم الروحي بالروح القدس»[٢٢] وما هو ثبات العالم الروحي؟ يؤكد القديس باسيليوس إنه الاستمرار في الصلاح، والبقاء في الخير هو عطية الروح القدس للقوات السمائية. ومن نفس الكتاب ندرك أن الثبات في الصلاح والخير والقداسة هو عطية الروح القدس للقديسين وللكنيسة. وهكذا نفهم من صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي صفات وعمل أقنوم الروح القدس:

«الحال في كل مكان،
المالئ الكل،
واهب القداسة بسلطة مسرتك للذين أحبهم وليس
كالخادم،
البسيط في طبيعته،
الكثير الأنواع في فعله،
ينبوع النعم الإلهية».

هذه العبارات تقال في أناشيد للروح القدس في الليتورجية البيزنطية، ولذلك يبدو لي من المناسب أن أضع عبارات — من عند القديس باسيليوس – تنسجم مع ما ذكرناه الآن:

- «إن التملك على الخليقة وتقديسها وتحريكها هو للروح القدس، فإنه إله مساو في الجوهر للآب والكلمة»[٢٣].
- «إن الروح القدس هو عنصر الحياة وله الكرامة، فإنه كإله يؤيد البرايا كلها ويصونها بالآب والابن»[٢٤].

(٢٢) الروح القدس للقديس باسيليوس، مرجع سابق فصل ١٦، فقرة ٣٨، ص ١١٤.
(٢٣) المرجع السابق، ص ٦٩.
(٢٤) المرجع السابق، ص ٧٠.

«إن الخليقة كلها تتجدد بالروح القدس راجعة إلى كيانها الأول»[٢٥].

هنا يجب أن نميِّز ما هو آتٍ من أجل الفهم:

١- ينبوع النعم وعنصر الحياة.

٢- واهب القداسة بسلطة ومسرة الآب، وتقديس الخليقة.

٣- التملك على الخليقة وثبات الخليقة في الصلاح.

٤- تحريك الخليقة وتجديد الخليقة وإعادة الخليقة إلى كيانها الأول.

هذه الأعمال يعملها الروح القدس الواحد، وهي تلقي الضوء على الملاحظتين السابقتين للآباء أثناسيوس وكيرلس:

١- الخبز الواهب الحياة لكل العالم.

٢- الخبز الذي لا ينفذ مهما تناولناه ويقدس المتناولين.

هذا يجعلنا نرى أن التقديس ونقل الخبز والخمر بقوة الروح القدس، إنما هو في حقيقة الأمر دخول تقدمة الكنيسة إلى مجال عمل عنصر الحياة الرب المحيي الذي أقام يسوع من الأموات والذي يجدد الخليقة، ويُعيد الخليقة إلى كيانها الأول، الذي لا يخضع لقوى الموت والاستهلاك، فالروح القدس يعلن الحياة الجديدة التي يتحول فيها الخبز إلى حياة، وهنا - كما رأينا - المسيح هو المن العقلي، فهو يقدِّم الغذاء الروحي، وطعام الحياة للبشر، وعندما يقدِّم المسيح ذاته كطعام عقلي روحي، فإن الكنيسة تأخذ الخبز والخمر وتضع الكل على المذبح وتستدعي الروح القدس لكي تنال الخليقة الأرضية، بالتقديس، هبة الحياة من روح الحياة، **وتتحد تقدمة الكنيسة بالخبز السمائي أي المسيح، وتصبح تقدمة واحدة.**

الفرق بين الخليقة الأولى والخليقة الثانية، أن الثانية أو الجديدة لا تخضع للموت، والحياة فيها لا تُستهلك، لا تنفذ ولا تموت؛ لأنها غير خاضعة

(٢٥) المرجع السابق، ص ٧.

للفساد. وإذا قال القديس باسيليوس: «إن الروح القدس هو سر ثبات الخليقة العقلية»، فإن الثبات في الخير والصلاح يعني ألاَّ تصل هذه الخليقة إلى الموت، وألاَّ تتحول عن الحياة.

وهكذا، الثبات هو ثباتٌ في الخير والحياة. الخليقة القديمة تفنى لأنها خضعت للفساد، أمَّا الخليقة الجديدة، فهي جديدة في المسيح، ولذلك تنقلنا قسمة أعياد الملائكة: «هوذا كائنٌ معنا اليوم على هذه المائدة عمانوئيل إلهنا»، تنقلنا إلى السماء وإلى الرتب الملائكية، ووالدة الإله، والذبيحة. وهنا يجب أن نلاحظ أن الصلاة تضعنا في مواجهة الثالوث: «قدوسٌ الآب ضابط الكل آمين الليلويا، قدوسٌ ابنه الوحيد ... قدوسٌ الروح القدس ... مقدسةٌ ومملوءةٌ مجداً والدة الإله ... مقدسةٌ ومملوءة مجداً هذه الذبيحة التي ذُبحت عن حياة العالم كله». ففي الحياة الجديدة كل كائن أمام الثالوث مقدسٌ ومملوءٌ مجداً: «الذبيحة التي أفعمتها من كل شيء طاهر بحلول روحك القدوس عليها». نحن هنا ندخل مجال الحياة: «مَن يأكلني يحيا بي»، ونحن لا نستطيع أن نطبِّق هذه الكلمات على الخليقة الأرضية؛ لأن الذين أكلوا المن ماتوا، لم يحيوا بالمن ولا نالوا هبة الحياة بالمن، أمَّا المن السماوي، فهو يُحيي ويُحيي في المسيح «يحيا بي»، فحياة المسيح لا تُستنفَد. فالمسيح يؤكل عقلياً، والفم باب العقل حسياً، وكل حواس الجسد تشترك وتتقدس. وقد طلب القديس كيرلس الأورشليمي في العظة ٢٢ أن يبل المتناول أصبعه بالدم الكريم ويرشم جبهته وعينيه بعلامة الصليب لكي يقدِّس جسده بدم المسيح. ولا زالت لدينا بعض العادات التي ورثناها عن أجدادنا، كلها تشير إلى ما كان يحدث منذ ألف سنة. ومع أننا نحوِّل الطعام البائد إلى جسدٍ بائدٍ، فإن المسيح يحوِّلنا نحن إلى حياته، إلى جسده، ولأن طبيعتنا الروحية تتحولُ في المسيح كلٌ حسب النعمة التي نالها، لكن تحوُّل الجسد الإنساني هو واحد لا اختلاف فيه «يُزرع في ضعف ويُقام في قوة، يُزرع في هوان ويُقام في مجد، يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد»، ولذلك السبب وحده دُعينا جسد المسيح، أي أن أجسادنا

سوف تكون مثل جسده، حسب قول الرسول: «سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (فيلبي٤: ٢١)، سوف ننال هذا التغيير الواحد الذي يخص كل مسيحي.

وماذا يحدث عندما نصبح نحن جميعاً جسد المسيح، ونأتي إلى قداس جديد، هل نأكل بعضنا بعضاً؟

والجواب بكل يقين: لا، ولكن لا يجب أن يصبح هذا السؤال، أو هذه الجملة الاعتراضية سبب إنكار أو شك في السر المجيد. «الجسد الواحد» هو كلمة أو اسم يطلق على طبيعة المسيح الإنسانية، والتي هي واحد معه. ونفس الاسم هو اسم عطية الحياة في الإفخارستيا، ولا يمكن أن نتصور أن للمسيح جسدين، فهذا تصور غير مقبول حتى على المستوى البيولوجي. حسب الروح جاء المسيح لكي «يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يو ١١: ٥٢)، فهو قد جاء لكي يُوحِّد، وجاء لكي يقضي على كل أشكال الانفصال، ولذلك يصرح رسول المسيح: «مَن سيفصلنا عن محبة المسيح»، وجاء لكي يبيد الموت، ويعيد إلينا الحياة المفقودة، ويردنا إلى الآب، ويجدد حلول الروح القدس فينا، ويصعدنا إلى فوق. فهو الآن مستتر في الله، في المجد، «في الشاكيناه» (فيلبي٣: ٢٠ - كولوسي٣: ١ - ٣).

تلك كانت أبعاد عمل المسيح، ولكنها كلها تدور حول حقائق واضحة:

أولاً: هو الرأس الذي منه كل الجسد ينمو نمواً من الله (كولوسي ٢: ١٩) فالجسد لا ينمو حسب القوانين البيولوجية، الجسد ينمو نمواً من الله. وهذا ما تؤكده الليتورجية عندما تضع النمو والبنيان، نمو الجسد وبنيان الهيكل: «سلاماً وبنياناً لكنيسة الله».

ثانياً: الذي يكوِّن جسد المسيح هو الروح القدس، هو ذات الروح الذي كوَّن جسده في أحشاء القديسة مريم، وهو ذات الروح القدس الذي يجددنا، وهو ذات الروح الذي يحول الخبز والخمر، وهو ذات الروح

الذي به ننضم إلى ذات الجسد، إلى المسيح (١ كو ١٢: ١٢ -١٣).

ثالثاً: وإذا غابت كل قوى الحياة الجسدانية، بقي علينا أن ندرك أننا في كل مرة نتناول، لا نتناول من جديد، لأن كل إفخارستيا ليست إفخارستيا جديدة، بل هي ذات عشاء الرب الذي يُـــمارس منذ العلية، ولذلك السبب لم تعرف الأرثوذكسية إلاَّ في عصور الجهل تعبير «العشاء الأخير»، أما عشاء الرب، فهو ذات العشاء: «يا الذي بارك في ذلك الزمان الآن أيضاً بارك .. يا الذي أعطى تلاميذه في ذلك الزمان الآن أيضاً أعطنا ...»، ولذلك - كما رأينا - نحن نأكل دون أن ينفذ، ونتناول دون أن ينقسم المسيح إلى عدة أشخاص، ولا نأكل أجزاء من الجسد، بل الجسد ذاته.

وإذا كان الروح القدس الواحد يوزع المواهب المختلفة ويظل ذات الروح الواحد، فإن المسيح الواحد يوزع جسده كعطية واحدة على كل المتناولين ويظل المسيح الواحد، ويظل جسده واحداً في الكل. وهنا آية العمل الإلهي، لأن الموت يجعل كل الأشياء التي تُعطى وتؤكل تنفذ وتنتهي وتتحول إلى لا شيء، وتستهلك، أما عمل الله فهو لا ينفذ ولا يستهلك، لأنه لا يمر بأجهزة الهضم البيولوجية، بل بأعضاء الإنسان الجديد المخلوق «حسب الله في البر والقداسة» حسب كلمات الرسول. وعن هذا قال الرب: «الجسد لا يفيد شيئاً»؛ لأننا لو كنا نأخذ جسده حسب القوانين البيولوجية، فإننا لا نأخذ إلاَّ الموت، ولكن كما يقول الرب: «الروح هو الذي يحيي»، ولذلك تؤكد الكنيسة أن الجسد المقدس هو «الجسد المحيي» الذي يأكل منه لا يموت، لأن الجسد هو جسد «واهب الحياة» هذه الصفة الإلهية لا يمكن أن تُفهم على أساس ما يحدث في المعدة ووظائف الأعضاء، بل هي علاقة الحي بالذين يحتاجون إلى الحياة، الجوعى إلى الخلود بمن هو خالد ومنزه عن الموت.

أشكال الاتحاد في اللاهوت المسيحي

هذه الحقائق السابقة تجعلنا قادرين على الرد على هذا السؤال الغريب، والرد سهل لمن يدرك حقيقة السر الإلهي الذي يعلو على إدراك الفهم.

أولاً: يوجد شكل للاتحاد، رفضته الكنيسة، وهو الاوطاخية، الاتحاد فيها هو ذوبان، وحسب رأي أوطاخي، المسيح واحد لأن جسده ذاب في لاهوته مثل قطرة عسل في بحر من الماء. وهكذا إذا ذابت الكنيسة في المسيح وتحولت إلى المسيح، لم يعد لنا اتحاد، بل سقوط في الاوطاخية.

وعندما يقول واحد من الإكليروس القبطي «أننا نأكل بعض»، فهذا الشخص لا يتكلم عن الاتحاد، بل يتكلم عن ذوبان الكل في طبيعة واحدة، هي حسب اعتقاده إما «لاهوتاً» وإما «ناسوتاً»، أي أن طبيعة الكنيسة بعد التناول تصبح هي جسد المسيح، حتى أن الكنيسة تسجد لنفسها وتأكل نفسها حسب تعبيرات هذا الشخص.

ومع أن تعبير «الجسد الواحد» قد استخدمه الوحي المقدس للزيجة المقدسة، فإننا نعلم أن الرجل والمرأة لا يذوبان في سبيكة واحدة هي جسد واحد، وإنما الاتحاد هو اتحاد بيولوجي وروحي تصبح فيه حياة الاثنين معاً وحدة واحدة.

ثانياً: ويوجد شكل للوحدة هو الثالوث، الطبيعة الواحدة، والحياة الواحدة وتمايز الأقانيم، وعلى هذا الشكل تصبح الكنيسة حسب كلمات الرسول: «وأما انتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً»، أي أننا لنا طبيعة واحدة على مثال الثالوث، ولكن يتمايز كل عضو فينا عن الآخر ويظل «أعضاؤه أفراداً» تأكيداً لعدم الامتزاج. وهكذا يظل الرأس هو الرأس، والجسد هو الجسد، الكل له طبيعة واحدة هي طبيعة الرب الممجدة المتَّحدة بلاهوته، ولكل إنسان الوجود الخاص الذي يميزه على مثال الثالوث.

ثالثاً: وحسب الثالوث يجب أن نفهم الكنيسة. وأيضاً حسب التجسد الإلهي وتعليم الآباء، إذ يظل الناسوت هو الناسوت، ويظل اللاهوت هو اللاهوت، ولكن في وحدة واحدة، توصف بأنها وحدة enhypostasia وحدة تأقنم بها الناسوت بالاتحاد، ولذلك يقال عن الناسوت إنه Hypostasia أي ليس له أقنوم خاص به، بل هو متأقنم بالاتحاد بالابن. وعلى هذا المثال ندرك معنى وجودنا كأفراد في جسد المسيح؛ لأننا نتحول إلى فرد كنسي، لنا وجوداً كنائسياً وليس وجوداً بيولوجياً؛ **لأن جسد المسيح ليس جسداً بيولوجياً بعد أن تمجَّد بحياة عدم الفساد بالقيامة وبمجد اللاهوت**. وقياساً على هذا نحن نصبح مثل ناسوت المسيح، نتأقنم بالاتحاد بأقنوم الابن، **وننال من هذا الاتحاد الوجود الكنسي، الذي فيه لا نصبح أفراداً بقوة الوجود البيولوجي، بل أشخاصاً، لنا كمال الحياة بالشركة**. هذا يجعل الشركة هي «رباط كمال المحبة» وينفي ذوبان كل إنسان في الآخر، ويجعلنا حقاً متأقنمين في المسيح لكي نكون مثل آدم الجديد المتأقنم بالاتحاد بأقنوم الابن الكلمة.